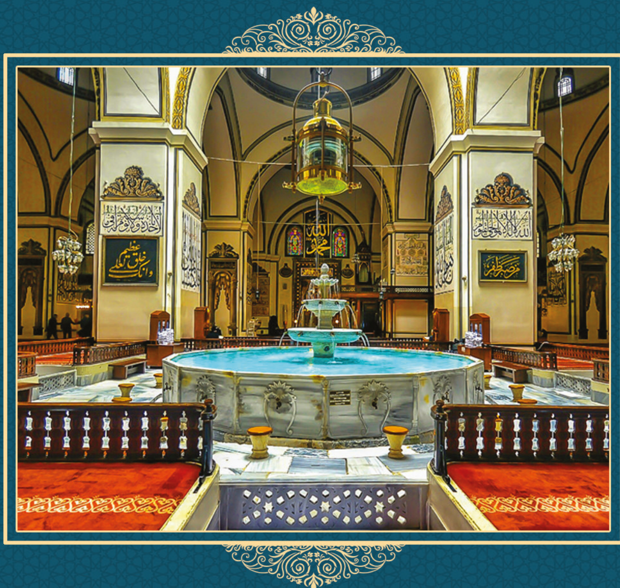


سؤال وجواب

ملاحظات في التصوف

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم





إسطنبول-٢٠١٩

سؤال وجواب
ملاحظات في التصوف

عثمان نوري طوبَّاش

اسم الكتاب باللغة التركية: Sual ve Cevaplarla TASAVVUFİ MULAHAZALAR

المؤلف: عثمان نوري طوبَّاش

الترجمة للعربية: محمد عز الدين سيف

التدقيق اللغوي: د. مراد كايا

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN : ٩٧٨-٦٠٥-٣٠٢-٦١١-٢

العنوان: İkitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi Atatürk Bulvarı, Haseyad 1. Kısım No:60/3-C Başakşehir, Istanbul, Turkey

الهاتف : (90-212) 671-0700 pbx

الفاكس : (90-212) 671-0748

البريد الإلكتروني : info@islamicpublishing.org

الموقع الإلكتروني : www.islamicpublishing.org

الناشر: دار الأرقم للطباعة والنشر

Language : Arabic



YÜZAKI YAYINCILIK

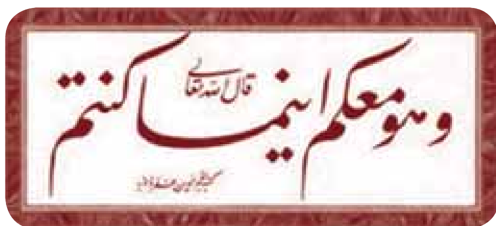


سؤال وجواب

ملاحظات في التصوف

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم



m

الحمد لله Y الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وأكرمه بالقدرة على درك الأسرار وفهم الحكم.

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، ودليل الهداية إلى معرفة رب العالمين، سيدنا وحبيبنا محمد r الصادق الأمين.

أما بعد،

لقد خلقنا ربنا سبحانه وتعالى كي نعبده حق العبادة، وأخبرنا أن العبودية المقبولة لديه والمفضية إلى الفلاح الأبدي إنما هي العبادة والطاعة والمعاملة والأخلاق القائمة على التقوى والإخلاص والخشوع. فهو القائل في كتابه العزيز:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[١]

---

١ المؤمنون: ١-٢.

ولا بد للمؤمن من تزكية نفسه كي يبلغ الدرجات العلى مثل الخشوع والإخلاص والإحسان... فالتزكية شرط للفلاح.

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}[٢]

ومن الأمور التي كُلِّف بها كل نبي تزكيةُ أمته، وتعليمهم تزكية النفس وتطهير القلب.

ولقد عاش نبينا r وأصحابه الكرام الإسلامَ وبلَّغوه كما أمر ربنا سبحانه وتعالى، عاشوا دين الله بالتقوى والخشوع والطمأنينة متحلِّين بقلوب سليمة ونفوس مطمئنة زكية. وبلغوا الصينَ وسمرقند والقيروان وأفريقيا، وضحوا بأموالهم وأنفسهم حتى يبلِّغوا هذا الدين المبين، وصار كل واحد منهم كشجرة باسقة ثمارها الفضائل والأخلاق الحسنة.

والتصوف إن كان يُذكَر بأسماء مختلفة مثل الزهد، والإحسان، ومعرفة الله، والبعد الباطني من الدين؛ فإن التصوف الحقيقي هو العيش كما عاش النبي وأصحابه، هو الإسلام نفسه...

إن التصوف ليس إلا الإسلام الخالص الذي كان في عهد رسول الله r ...

يقول الإمام الرباني السرهندي رحمه الله:

٢ الأعلى: ١٤.

«التصوف إيصالُ الشريعة إلى الكمال».

وعلى الرغم من وجود هذه الحقيقة الساطعة، ظهر معارضون للتصوف يمكن وضعهم في صنفَين:

- صنف يعادي التصوف عمدًا.

- وصنف يعارضه لجهله به.

فأما الذين يبيِّتون الخصام للتصوف عمدًا وإصرارًا مع علمهم بأن التصوف إنما هو جوهر الإسلام، فليس لنا إلا أن ندعو لهم بالهداية.

وأما الجاهلون بالتصوف:

فهُم الذين لا يعلمون ماهية التصوف الحقيقية ويظنوه بدعة.

والذين ينتقدون التصوف لأمثلة سيئة تخرج عن إطار أهل السنة وتعارض الأحاديث الشريفة.

والذين يظنون أن الافتراءات التي يلفِّقها أعداء التصوف حقيقةً.

فإيضاح حقيقة التصوف لهذا الصنف واجب ومسؤولية.

وحاولنا في هذا الكتيِّب الذي نضعه بين أيديكم على صورة سؤال وجواب أن نؤدي واجبنا، وسعينا أن نعرض التصوف بصورة صحيحة متطرقين إلى مواضيع منها:

- ماهية التصوف والطريقة والفرق بينهما.

– مفاهيم مثل: المرشد الكامل، والإنسان الكامل، والعلم النافع.

– حياة النبي r وصحابته اليومية القائمة على الإخلاص والتقوى.

– خصال أولياء الله وحِكمهم وذكرياتهم المليئة بالعِبر.

– الرابطة في التصوف، حقيقتها وما يُسَاءُ فهمه.

وفي الختام أدعو الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل وسيلةً لفهم التصوف الذي هو حقيقة الإسلام، وإصلاح الفهم الخاطئ عن حياة الأولياء والصالحين.

واللهَ أسأل التوفيق.

عثمان نوري طوبَّاش
آق مسجد
كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٨م
ربيع الآخر ١٤٤٠هـ

ملاحظة: أتقدم بالشكر الجزيل لإخواني محمد عاكف غوناي، ومصطفى عاصم كوجوك آشجي، ومحمد علي أشملي الذين كان لهم فضل في إعداد هذا العمل، وأدعو الله تعالى أن يكون عملهم هذا صدقة جارية في ميزان حسناتهم.



سؤال وجواب

ملاحظات في التصوف

من العسير أن تعبِّر كلماتنا المحدودة عن حقيقة التصوف ومكنوناته، فالمرء لا يستطيع أن يدرك التصوف ويشعر به إلا حين يعيشه ويحيا به.

التصوف إنما هو التخلي عن الطباع السيئة والتحلي بالأخلاق الكريمة.

والتصوف تزكيةُ النفس وتطهيرُ القلب؛ أي الخضوع لتربية معنوية لزرع بذور التقوى والتخلص من الفجور في فطرة الإنسان.

والتصوف مهارة الوصول إلى التقوى.



ملاحظات في التصوف

ما التصوف؟

سؤال: سيدي الفاضل، لو بدأنا بتعريف التصوف، كيف تعرِّفونه لنا باختصار؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

ثمة تعريفات كثيرة للتصوف، لكن نستطيع أن نجمع هذه التعريفات كلها بقولنا: إن التصوف سعي لعيش الإسلام كما عاشه رسول الله r وصحابته الكرام بإقبال ومحبة عظيمة في إطار الإخلاص والإحسان والتقوى والوجد والاستغراق.

والتصوف بتعبير آخر: إيصال الإيمان إلى مرتبة الإحسان السامية. فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ أي تدرك وتشعر بقلبك أن الله يراقبك، وكأن آلات تصوير إلهية تلتقط كل حركاتك وسكناتك.

والتصوف طريقة تربوية تعلِّم المرء كيف تتحقق أعمال القلب المذكورة في الكتاب والسُّنة مثل الإخلاص، والتقوى، والإحسان، والزهد، والخشوع، والتوبة،

والرضا؛ وتعلِّمه كيف يبرأ من أسقام النفس مثل الرياء، والعجب، والكبر، والغيبة، والحسد. والتصوف سعي ليكون المرء دقيقًا في الفروض والمحرمات الباطنة، مثلما يكون دقيقًا في الفروض والمحرمات الظاهرة.

والتصوف من هذه الناحية إنما هو لب الدين والجانب الذي تنشط فيه أعمال القلب، فإذا أُهمِل هذا الجانب، لم يبقَ من الدين إلا هيكل من القواعد الظاهرة.

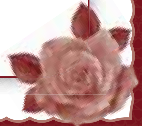
فالتصوف الذي نفهمه ونحاول توضيحه للناس إنما هو سعي لفهم النبي r بمحبة فهمًا صحيحًا، والتخلق بأخلاقه الحميدة، وعيش الإسلام عيشًا يليق بجوهره وروحانيته، والتصوف «حياة التقوى» التي عاشها النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته.

وكل ما بقي خارج إطار ما ذكرناه ولم يكن نابعًا من الكتاب والسنة ومستندًا إليهما فهو باطلٌ مهما نُسِب إلى التصوف.



يقول الإمام الرباني السرهندي رحمه الله:

«التصوف إيصالُ الشريعة إلى الكمال».



سؤال: كيف تعرِّفون مصطلح الإنسان الكامل؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

الإنسان الكامل إنسانٌ قدوةٌ أكملَ ظاهر الدين وباطنه بعد تلقيه تربية معنوية، واجتاز قلبه مراحل حتى وصل إلى الكمال في السلوك والمعاملة والأحوال.

وليس في حياة المؤمن الكامل شيء مهما صغر يخالف القرآن والسنة. ومن أبرز أوصافه اتباعه لرسول الله وطاعته إياه والتسليم لأوامره، حتى إنه يتحرك بدقة ميزان الصائغ في شأن اتباع القرآن والسنة. وخير مثال لنا الصحابة الكرام وعلى رأسهم سيدنا أبو بكر الصديق، والسلف الصالح، وأولياء الله.

والمؤمن الكامل باختصار هو العبد المفلح الذي يعلم أن الله تعالى يراقبه كل لحظة، فيحيا حياة عبودية لله تعالى بإخلاص وتقوى من غير أن يضيِّع نَفَسًا من أنفاسه هباءً.



التصوف معركة معنوية لا هوادة فيها. يقول ربنا U:

{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩].

تستمر المناصب التي تُنال بالشهادات الدنيوية، لكن المناصب المعنوية تقتضي المحافظة عليها بالتقوى حتى خروج الأنفاس الأخيرة.



هل الانتساب شرط؟

سؤال: سيدي الفاضل، هل الانتساب لشيخ مرشد ضرورةٌ لتزكية النفس والترقي في الدرجات المعنوية؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

إن المؤمن السائر على طريق الروحانيات والمعنويات قد يلقى تجليات مختلفة كثيرة. فقلب الإنسان كبحر لا حدَّ له، وماء هذا البحر هادئ راكد تارة، ومائج مضطرب تارة أخرى. وكلما خاض المرء هذا البحر، وجد رؤى وظهورات لا يُعلَم رحمانية هي أم شيطانية، وقد تكون هناك أحوال معنوية تختلف من فرد لآخر.

فلا بد من التفريق بين الحق والباطل في هذه الأحوال والرؤى، وهنا تظهر الحاجة لإرشاد مرشد تقي عارف بالله؛ أي ينبغي إضافةً إلى متانة السفينة وجودُ رُبَّان ماهر يمر من ذاك البحر سالمًا غانمًا ويصل إلى ساحل السلامة، فالرُبَّان الخبير يعلم في أي الطرق يبحر إذا هبت العواصف الهوجاء.

> التصوف هو أن يحيا المرء باستقامة، والاستقامة الاعتصامُ بكتاب الله وسنة نبيه، وإدراكُ أوامر الله ورسوله بالقلب، وتطبيقها بمحبة في كل مجالات الحياة.



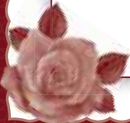
لذلك على مَن يطلب السفر في هذا البحر المعنوي لبلوغ مرضاة الله تعالى أن يجد أولًا مرشدًا أهلًا لهذه المهمة، فيسعى ليرافقه، وإلا فإنه سيضل عن الصواب في هذه الرحلة المليئة بالمخاطر، ثم يهلك في نهاية المطاف.

والتربية الصوفية الضرورية لنضج الإنسان من ناحية الروحانيات لا تكون بقراءة الكتب فقط، فنبيُّنا r لم يعطِ طلَبَتَه وهم الصحابة الكرام أقلامًا ودفاترَ، بل ربَّاهم في حياة نبوته التي دامت ٢٣ سنة بتطبيقه أوامر الله تعالى وحثِّهم على ذلك.

والعلم بين سطور الكتب ضرورة وذو نفع، غير أنه لا بد من تطبيقها في الحياة. لذلك كان لا مفر من مرشد عارف مُطَّلع على دقائق هذا الطريق يُقتدَى به كي يحل المشكلات التي قد تظهر.

والمرء لا يستطيع القيام بعمليات جراحية بقراءة كتاب في الطب، ولا يحل القضايا بقراءة كتاب في

التصوف وصولُ القلب إلى أعلى درجات السعادة بالعيش في روحانيات الكتاب والسنة.



الحقوق، وكذلك الحال في الحياة المعنوية، فهي حياة عملية تطبيقية إلى جانب الحقائق المجردة.

ولا يمكن للمريض أن يعالج نفسه، إذ لا يعلم الدواء الذي يعالجه ولا عدد الجرعات ولا مدة تناوله. فإذا حاول علاج نفسه، فقد يضر بها أكثر مما ينفعها.

إن الأوراد والأذكار وَصَفات معنوية تُعطَى للمرء وفقًا لحاله، فإذا صام أحدهم أربعًا وعشرين ساعة ظانًّا أنه سيزيد بذلك حسناته، فهل تزداد حسناته؟ كلا.

لهذا فإن الرحلة المعنوية التي تُسمَّى في التصوف «السير والسلوك» تفرض على السالك التدرب كما يتدرب الأجير عند الصانع، وأخذ العلم في كثير من الأحيان لا بالدفتر والقلم، بل بالاستماع من فم الشيخ أو مشاهدة أحواله، ثم تطبيق كل ذلك.

فلا يمكن الحديث عن حياة صوفية صحيحة بغير ربط القلب بمرشد كامل. فمَن مشى في هذا الطريق بلا مرشد، لم ينجُ من زلات الأقدام في أكثر الأحايين.

التصوف رضا وتسليم. والتصوف عدم التأثر بتقلبات الحياة، والحفاظ على توازن القلب في ظل الظروف المتغيرة، وترك جميع أنواع الشكوى والرضا الدائم بما قدَّر الله تعالى.



ومَن طلب التصوف بلا تربية معنوية من شيخ، لم يدرك المنال، ولم يرَ أخطاءه إذ لم يحذره أحد، وفوق ذلك كله ظنَّ أن الأخطاء التي يكون ظاهرها حق صوابًا بوساوس النفس وإغواء الشيطان.



سؤال: ماذا ينبغي للذي يريد أن يتصوف قبل الانتساب إلى طريقة من طرق التصوف؟

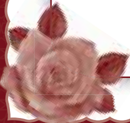
الشيخ عثمان نوري طوبّاش:

ينبغي أولًا أن نعلم أن التصوف سعيٌ ليراعي المرء الضوابط الشرعية في حياة عبوديته لله تعالى مراعاةً سليمة وذلك بتربية نفسه. لذلك لا بد من النظر قبل كل شيء في الطريقة التي سينتسب المرء إليها، هل هي ضمن إطار القرآن والسنة، وهل تراعي الضوابط الشرعية؟

ولسيدنا عمر بن الخطاب t قول جميل:

«أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم».

التصوف القدرةُ على أن تكون عبدًا صالحًا لله سبحانه بمحبته ومعرفته حقَّ المعرفة.



فإكرام الضيف لا يكون بكأس فارغة. لذلك فإن المرشد الذي يكون في موقع إرشاد الناس عليه أولًا أن يكون قدوة في شخصه بتطبيق ظاهر الدين وباطنه؛ أي لا يمكن أن يكون مرشدًا كاملًا مَن لا يراعي ظاهر الكتاب والسنة وباطنهما، أو يكون لديه في هذا الشأن تقصير أو إهمال.

وللشيخ أبي يزيد البسطامي رحمه الله قصة جميلة:

إذ خرج ذات يوم مع مريديه لرؤية رجل اشتُهِر بين الناس أنه «ولي». فرآه يبصق نحو جهة الكعبة خارجًا من داره إلى المسجد، فحزن لما رآه وعاد أدراجه من غير أن يسلِّم عليه، وقال لطلبته:

«هذا الرجل غير موثوق في رعاية أدب من الآداب التي علَّمنا إياها رسول الله r ، فكيف يؤتمَن على أسرار الله U وحكمه؟»

أي إن أكبر علامة تدل على المرشد الحقيقي اتباعُه السُّنَّة. فلا بد من النظر في مَن نتَّبعهم في أمور الدين

التصوف مسؤوليةٌ يحملها أولئك الربانيون
تجاه عباد الله الغافلين الشاردين التائهين،
فيعاملونهم ويخدمونهم ويرشدونهم بالرأفة
والرحمة والمحبة ابتغاء مرضاة الله تعالى.



والأحوال المعنوية والتأكد من دقتهم في اتباعهم الكتاب والسنة؛ فمؤشر صلاح القلب وسلامته إنما هو اتباع الكتاب والسنة.

لذلك علينا ألا نعتبر بمَن لا يراعي الكتاب والسنة في حياته ومعاشه، ولو أطلق الناسُ عليه ألقابًا مختلفة مثل شيخ أو عالم أو غير ذلك.

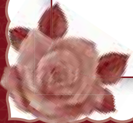
وإن صدر عن مثل هؤلاء أحوال مثل الكرامات أو الكشف، فلا بد من الحذر والحيطة. ذلك أن هذي الأحوال ليست كرامات أو فضائل، بل أكثرها «استدراج» يكيده الشيطان.

يقول جنيد البغدادي رحمه الله:

«إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة».

إن غاية التصوف إنضاج القلب حتى يكون قادرًا على تطبيق الأحكام الشرعية كما ينبغي، وليس الانشغال بالبواطن من الأعمال وإهمال التكاليف الشرعية أو الاستخفاف بها.

التصوف رأفة ورحمة ومحبة وخدمة للمخلوقات لأجل الخالق.



لكن الذين يدَّعون المراتب العليا في التصوف ويتفاخرون بذلك يرون كل شيء أحكامًا باطنة، ويستخفُّون الشريعة التي هي أحكام الدين الظاهرة، وذاك دليل واضح على بعدهم عن حقيقة التصوف. ففكرة: «اعمل ما شئت ما دام قلبك نقيًّا» إنما هي إشارة لإطلاق العنان للنفس وأهوائها، وليس لذلك علاقة بالتصوف الحقيقي الذي هو خادم للشريعة.



سؤال: هل لكم أن تذكروا لنا أعظم حادثة تأثيرًا فيكم من حياة الشيخ سامي أفندي حين عاصرتموه؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

كان والدي موسى أفندي رحمه الله يحملني إلى مجالس الشيخ سامي أفندي على صغر سنِّي. وكنت أبقى في تأثير تلك الأحوال المعنوية والفيوضات والروحانيات مع أني لم أكن أفهم ما يتحدثون فيه لأنني كنت صغيرًا.

يقول الشيخ محمود سامي رحمه الله:
«تتشكل أخلاق الإنسان وفقًا لمحيطه. فصاحب الخُلق الحسن إذا صحب الغافلين وألِفَهم، ضاعت خصاله الجميلة وصارت أخلاقه سيئة شريرة».



لقد كانت حياة الشيخ سامي أفندي في الإرشاد قائمة على المجالس والصحب الدينية. كانت لمجالسه روحانية لا تُوصَف، يأتي إليها الناس من أصناف شتى، وحتى علماء العصر والذي عاصروا الدولة العثمانية، مثل بكر حقي أفندي، وعمر نصوحي أفندي، وفؤاد أفندي. وكنت آنذاك أحارُ وأسأل نفسي: هل يأتي هؤلاء العلماء ليستمعوا إلى ما يعرفونه من أمور الدين؟ غير أني أدركت لاحقًا أن تلك الصحب الدينية كانت مجالسَ لانتقال الأحوال.

كان الشيخ سامي أفندي أكثر ما يقف عنده في صحبه موضوع «القلب السليم» و«النفس المطمئنة». وكان يقول إن المرء يصل إلى القلب السليم بعد قطع القلب لمراحل كثيرة، ويوضِّح أن بعثنا يوم القيامة يكون وفقًا لأحوالنا المعنوية في الدنيا.

وكان يكثر من ذكر القصص في صحبه، ويقول:

«علامة المحبة أن تكون أحوال الحبيب كأحوال المحبوب».



يقول الشيخ محمود سامي رحمه الله:
«اللقمة الحرام تفسد القلب وتجعل صاحبها يأتي الأعمال السيئة. أما القلب الذي يتغذى من اللقمة الحلال، فعنه تصدر الأعمال الصالحة. ومثل ذلك مثل التربة الخصبة تنتج محصولًا مباركًا، والتربة القاحلة تنتج محصولًا رديئًا».



أمثلة في الفضائل

سؤال: هلَّا تذكرون لنا أمثلة في الفضائل من حياة أولياء الله تعالى؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

دعنا نبدأ من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم جوابًا لسؤالكم.

فالصحابة الكرام تنزَّلت عليهم الرحمات والبركات في مجالس رسول الله r . واستطاعوا أن يعرضوا أمثلة عظيمة في الفضائل ببركة «الروحانيات والانعكاس» التي نالوها من نبينا الكريم.

فقد نال سيدنا أبو بكر t لقب «الصديق» إذ قال بعد حادثة المعراج حين أراد المشركون تكذيب النبي والتشكيك فيه: «إن كان قال فقد صدق»، وهو الذي أنفق أمواله كلها في سبيل الله U .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب t مضرب المثل بعدله، وهو القائل:

> خير مثال لتربية التصوف مجتمع الصحابة الكرام. والرابطة حفاظ على المحبة، وخير مثال لها رابطة قلب سيدنا أبو بكر t بالنبي r . ذلك أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.



«لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة».

وكان يحمل جُرُب الدقيق ليلًا على ظهره ليوصلها إلى فقراء المدينة.

واشتهر سيدنا عثمان بن عفان t بسخائه وحيائه وحبه لتلاوة القرآن، وكان مخلِصًا لرسول الله r إخلاصًا عظيمًا، حتى إنه حينما أرسله النبي عليه الصلاة والسلام قبل الحديبية رسولًا إلى أهل مكة، قال له أقاربه المشركين:

«إن شئت أن تطوف بالبيت فطف»، فكان ردُّه: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله».

وكان سيدنا علي بن أبي طالب t المعروف بشجاعته وعلمه مَثَلًا في الإنفاق في العسر والشدة. إذ يُروَى أنه وزوجته فاطمة c صاما لثلاثة أيام، فأعطيا طعام إفطارهما في هذه الأيام للمسكين واليتيم والأسير الذين جاؤوا تِباعًا يطلبون الطعام لوجه الله تعالى.

المؤمن كالشمس ينير أحلك الأماكن،
والمؤمن كالمطر يروي أقحل الأتربة.



إن فضائل الصحابة الكرام لا تعد ولا تحصى... والقصة التالية التي تُظهِر سعة قلب عبد عاش في ذلك العصر لَهيَ خير دليل على مستوى الإنسانية آنذاك:

يُروى أن عبد الله بن جعفر V خرج إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم وفيها غُلام أسود يقوم عليها، فأُتِي بقوته ثلاثة أقراص، ودخل كلب فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص فأكله، ورمى إليه بالثاني فأكله، ثم الثالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه فقال : يا غلام، كم قُوتَكَ كل يوم؟ قال: ما رأيتَ. قال: فلمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب وأخاله جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده. قال: فما أنت صانعٌ اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: أُلامُ على السخاء، إن هذا لأسخى مني.

واشترى عبد الله بن جعفر t الحائِطَ والغلام، وأعتق الغُلام ووهب ذلك كله له.

فهذه القصة مثال جلي واضح للنظر إلى المخلوقات بنظر الخالق، وتحلي الإنسان بالرحمة.

يقول الإمام الرباني السرهندي رحمه الله:
«اعلموا أن القلب جار الرحمن، وليس شيء أقرب إلى جناب قدسه كالقلب. إياكم وإيذاء أي قلب كان مؤمنًا أو عاصيًا، فإن الجار وإن كان عاصيًا يُجار».



إن أمثال هؤلاء كانوا أهل جاهلية قبل الإسلام، فلنفكر بالتربية التي أوصلتهم إلى هذه الدرجة من الرحمة والرأفة!

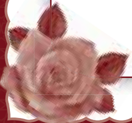
إنها التربية التي تلقوها من رسول الله r .

لقد كان النظام في الجاهلية كنظام الطبقات المعروف في الهند، إذ ما كانوا يعاملون العبيد والفقراء معاملة إنسانية. غير أن هذا التفريق على أساس الطبقات زال بالتربية النبوية.

لقد كان سيدنا بلال t أسودَ اللون، فعيَّره أبو ذر t في حال غضب بقوله: «يا ابن السوداء». فلما سمع النبي r بذلك حزن وقال: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**». فندم أبو ذر وتاب من فعلته، وذهب إلى بلال ووضع خده على الأرض مصرًّا على أن يطأ بلال خده بقدمه.

وبعد هذه الحادثة صار أبو ذر t دقيقًا في تطبيق ما جاء به رسول الله r ، والدليل على ذلك ما نقله المعرور بن سويد رحمه الله إذ قال:

على المؤمن أن يكون رؤوفًا كالنفحات الطيبة، سخيًّا كالمطر المعطاء، يبعث الطمأنينة أينما كان، ويسعى لرضا الله تعالى كل حين.



لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حُلَّة، وعلى غلامه حُلَّة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلًا فعيرته بأمه، فقال لي النبي r :

«يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».[٣]

إن مظاهر التضحية والإيثار تكون في مثل هذا المجتمع الذي يتآخى فيه أفراده. ومثال ذلك أنه أهدي لرجل من أصحاب رسول الله r رأس شاة، فقال: «إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منا» قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث إليه واحدًا إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول.[٤]

ولم يقتصر الأمر على الإنفاق المادي، بل كانوا يعيشون في طمأنينة يثق بعضهم ببعض.

---

٣ البخاري، الإيمان، ٢٢، العتق، ١٥؛ مسلم، الأيمان، ٤٠.

٤ الحاكم، المستدرك، جـ٢، ٥٢٦.

حينما يصب النهر في البحر، يبقى ذاته وتصبح صفاته من صفات البحر، أي إن المرء يعيش المعية مع الله تعالى حين يتخلص من وجوده النفساني.



حينما حث النبي r أصحابه على الإنفاق في غزوة تبوك، لم يجد علبة بن زيد t ما يتصدق به لفقره، فقال:

«اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض».

ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله r : «**أين المتصدق هذه الليلة؟**» فلم يقم أحد، ثم قال: «**أين المتصدق فليقم**» فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله r :

«**أبشر فو الذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المُتقبَّلَة!**».[٥]

لقد علَّم رسول الله r صحابته الكرام العفو والتسامح، إذ قال لهم ذات يوم:

«**أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم؟**»

---

٥ ابن كثير، السيرة، جـ٤، ٩؛ ابن حجر، الإصابة، جـ٢، ٥٠٠؛ الواقدي، جـ٣، ٩٩٤.

التصوف سعي ليكون المرء مع رسول الله r في الآخرة، فهو القائل:

«المرء مع مَن أحب».

[البخاري، الأدب، ٩٦]



قالوا: ومن أبو ضمضم؟ قال:

«**رجل فيمن كان من قبلكم، كان يقول: عرضي لمن شتمني**». وفي رواية: «**كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك**».[٦]

وسار أولياء الله على أثر الصحابة الكرام وتحلوا بفضائلهم، وعاشوا حياتهم، ورحمتهم شملت المسلمين والناس بل حتى المخلوقات كلها.

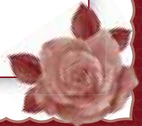
ومثال ذلك أن الشيخ أبا يزيد البسطامي خرج في سفر، وأراد في الطريق أن يستريح ويأكل في ظل شجرة، ثم ارتحل. ولكن بعد مدة طويلة من السير، وجد في أمتعته نملة، فحزن حزنًا شديدًا. فرجع إلى حيث أكل الطعام كي يضع تلك النملة في موطنها.

والقصة التالية من حياته مليئة أيضًا بالحِكم القيمة:

كُشِف لأبي يزيد أن قطب الزمان أبو حفص الحداد. فأراد أن يأخذ منه الفضائل ويعلم كيف وصل إلى هذه

٦ أبو داود، الأدب، ٤٣.

ما أشد بؤس العبد لدى انجراره وراء رغبات النفس الدنيئة مع أنه يستطيع أن ينال سعادة عظيمة بتقرُّبه من الله تعالى بالتقوى.



الحال، فشرع يبحث عنه. فوجده باكيًا قرب النار يضرب الحديد. فسأله: «ما بكَ؟ لمَ تبكِ؟»

فقال أبو حفص: «كيف ستكون حال المذنبين يوم القيامة؟»

فقال أبو يزيد: «وما لكَ ولهم؟»

فتنهد أبو حفص وقال: «فطرتي جُبِلَت بالرحمة. لا أجد الصفاء ومسلمٌ في الجفاء».

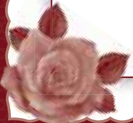
يقول أبو يزيد البسطامي:

«علمتُ بعد ذاك أن أهم مرحلة في الولاية الرحمة. لم يكن أبو حفص رحمه الله من القائلين: (نفسي، نفسي) بل كان من مشرب النبي القائلين: (أمتي، أمتي). إن خَلَّة أبي حفص هذه من بركة الرحمة والرأفة التي صارت طبيعة أصيلة فيه».

ويعبِّر الشيخ أبو الحسن الخرقاني عن الرأفة بقوله:

«إن دخلت شوكة في إصبع أي أخ لي في الدين من الشام إلى تركستان، فكأنما دخلت إصبعي؛ وإن أُصيبت

العمل بلا إخلاص وتقوى كالبناء خرِبٌ أساسه، آيل للسقوط، مهما كان عظيمًا.



قدمه بحجرة، آلمَت قدمي؛ وإن كان هناك حزن في قلب ما، فذاك القلب قلبي».

وكذلك كان حال مولانا جلال الدين الرومي إذ يقول:

«علَّمني شمس التبريزي رحمه الله أدبًا عظيمًا حين قال: (إذا كان في الدنيا مؤمن واحد يشعر بالبرد، فليس لك حق في أن تتدفَّأ). وأنا أعلم أنه ثمة مؤمنون في الأرض يشعرون بالبرد، لذلك لن أشعر بالدفء ما حييت».

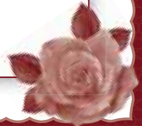
إن أولياء الله تعالى لا ينشغلون بهموم المتقين فحسب، بل يرأفون أيضًا بحال المذنبين ويفتحون ذراعيهم لهم وكأن كل واحد منهم طير مكسور الجناح، يكرهون الذنب ولكن لا يكرهون المذنب، يسعون ليكونوا بلسمًا للناس كالطبيب الرؤوف الذي لا يلوم مريضه.

ولنا أن نذكر هنا الحادثة التالية:

دخل سكران تكية مولانا جلال الدين الرومي، فوبَّخه الدراويش وأخرجوه. فقام مولانا إلى ذلك الدرويش

يقول لقمان الحكيم:

«لا تنسَ الله تعالى والموت. وانْسَ شيئَين: الخير الذي أدَّيته للآخرين، والإساءة التي تلقيتها منهم» حتى يرقَّ قلبك، ويمتلأ بالروحانية ويكتب اسمك في دفتر الصالحين.



الذي دخل باحثًا عن دواء لهمومه، ونبَّه الدراويش بقوله: «لقد شرب هذا المسكين الخمر، ولكن كأنكم أنتم السكارى».

إن ستر العيوب علامة فارقة لدى أولياء الله. لقد كان حاتم الأصم وهو من شيوخ مدينة بلخ سليمَ السمع، وللقبه «الأصم» حادثة مليئة بالعبر:

إذ جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت. فقال حاتم: ارفعي صوتك. فأوهمها أنه أصم. فسُرَّت المرأة بذلك. وقالت: إنه لم يسمع الصوت. فلقب بحاتم الأصم.[٧]

وظل هذا اللقب يلازمه خمسة عشر عامًا إلى أن توفِّيت تلك المرأة.

لقد كان أولياء الله يهتمون بهموم المؤمنين ويستعظمون الذنب ولو كان صغيرًا، ويستغفرون الله تعالى من ذلك الذنب لسنين.

---

٧ ابن القيم، مدارج السالكين، جـ٢، ٣٢٨.

يعبِّر مولانا جلال الدين الرومي عن جوهر التصوف بقوله:

«إنني ما دامت الروح محبوسة في هذا الجسد عبد لما جاء في القرآن،
وسالك درب محمد r ».



يحكى عن السري السقطي رحمه الله أنه قال:

«منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرّة. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل فقال لي: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله. فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين».

لقد كان الإيثار خَلَّةً دائمة في أولياء الله، إذ شبعوا بشبع الجياع، وفرحوا بهداية الناس.

يُروَى أن مولاةً لداود الطائي قالت:

«يا داود، لو طبخت لك دسمًا. قال: فافعلي. فطبخَتْ له شحمًا ثم جاءته به. فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم. قال: اذهبي به إليهم، فقالت له: فديتك إنما تأكل هذا الخبز بالماء؟ قال: إني إذا أكلته كان في الحش وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخورًا».[8]

---

٨ ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ٢، ٧٨.

يقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله:

«أقرب الناس إلى الحق تعالى مَن احتمل جفاء الخلق، وحمل حاجاتهم برحمة، وكان أحسنهم أخلاقًا».



لقد بلغ أولياء الله تعالى هذه الدرجة من الرأفة والرحمة والإيثار بتزكية نفوسهم.

فالشيخ شاه نقشبند مثلًا بلغ ذورة التواضع بعد أن أشار عليه شيخه أمير كلال أن يخدم المرضى ثم الحيوانات الجريحة سبع سنين. ونظَّف الطرق التي يسير عليها الناس. وكان يذكر أنه بلغ الدرجات العظيمة في هذه الخدمات.

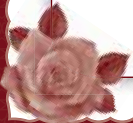
وكان الشيخ عزيز محمود هدائي يبيع الكبد بزي القضاء كي يتخلص من أهواء نفسه.

وظل الشيخ يونس أمْرَه يأتي بالحطب إلى التكية أربعين عامًا. وكان في تسليم تام لأوامر شيخه تابتوك أمرَه، حتى ينال رضاه.

لقد تخلص أولياء الله من الأنانية وأهواء النفس، وأدركوا أنهم إلى الفناء آيلون. وكانت أحوالهم تجليًا لقول: «حينما تخرج من بين الخلق، يبقى رب الخلق».

وما إن نجوا من قبضة النفس وغوائلها، لم يعبؤوا بالدنيا وما فيها، فاتجهوا بقلوبهم نحو الآخرة وأعدوا لها.

الرحمة أعظم ثمار الإيمان، وأفضل دليل على الرحمة إعطاؤك ما عندك لمَن ليس عنده.
والرحمة بتعبير آخر مسارعتك لعون الآخرين كي تعوضهم عن حرمانهم.



اجتمع إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي رحمهما الله في الطواف، فقال إبراهيم لشقيق: على أي شيء أصَّلْتم أصلَكم؟ قال: أصَّلْنَا أصلنا على أنا إذا رُزِقنا أكلنا وإذا مُنِعنا صبرنا، فقال إبراهيم: هكذا تفعل كلاب بلخ، فقال له شقيق: فعلى ماذا أصَّلتم؟ قال: أصَّلنا على أنا إذا رُزِقنا آثرنا، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا، فقام شقيق فجلس بين يدي إبراهيم فقال: يا أستاذ، أنت أستاذنا.[9]

فنجد في هذا الجواب حكمًا وعبرًا تتجاوز الكلمات الظاهرة، لأن العوام والخواص وخواص الخواص لا يدركون الحقائق ذاتها بدرجة واحدة. والقلب المتحلي بالتقوى يدرك حقائق الإسلام إدراكًا أدق وأعمق ويعيشه.

وتُصنَّف مراتب الإدراك هذه إلى أربعة: الشريعة، والطريقة، والحقيقة، والمعرفة.

---

٩ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٨، ٣٨.

أتعس إنسان من أضاع الرحمة، فالرحمة دليل إنسانيتنا، وإن ذهبت الرحمة لم يبقَ شيء من إنسانيتنا.



وإذا أردنا أن نضرب مثلًا لهذه المراتب:

يُقَال في الشريعة «مالُكَ مالُكَ، ومالي مالي» لأنه قاعدة فقهية.

وأما في الطريقة فيُقَال: «مالُكَ مالُكَ، ومالي مالُكَ لوجه الله». لأن التضحية اتسعت بشعور «الفناء في الإخوان» في الطريقة، وأصبح السخاء والإيثار مصدرًا للذة المعنوية.

وأما في الحقيقة فيُقَال: «لا مالُكَ مالُكَ، ولا مالي مالي، بل كله لله». أي إنه في هذه الدرجة يكون «الملك لله» ويصبح السعي في سبيل الله بكل الإمكانات قاعدة في الحياة، ويسقط حب الدنيا من القلب.

وخير مثال لهذه الدرجة سيدنا أبو بكر الصديق، إذ لما جاء يتصدق بكل ما عنده، قال له رسول الله r :

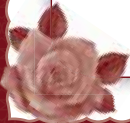
«ما أبقيت لأهلك؟»

قال: «أبقيت لهم الله ورسوله».[10]

---

١٠ أبو داود، الزكاة، ٤٠.

في الشريعة: «مالُكَ مالُكَ، ومالي مالي»
وفي الطريقة: «مالُكَ مالُكَ، ومالي مالُكَ لوجه الله»
وفي الحقيقة: «لا مالُكَ مالُكَ، ولا مالي مالي، بل كله لله»



وما أجمل قول الشيخ يونس أمره:

يطلب الصوفيون الصحبة
ويطلب الإخوان الآخرة
ويطلب المجانين ليلى
وأنا أطلبك وحدك وحدك!

والحادثة التالية مثال واضح لهذه الحقائق:

فقد جاء رجل إلى الشبلي رحمه الله يسأله عن مقدار الزكاة الواجبة في إبله، وقال : كم في خمس من الإبل؟ فقال الشبلي : شاة في الواجب، فأما عندنا، فكلها لله. فقال الرجل: فما دليلك في ذلك؟ فقال الشبلي: سيدنا أبو بكر t خرج عن ماله كله لله ورسوله r . ثم قال: من خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر t ، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر t ، ومن أخذ لله، وأعطى لله، وجمع لله، ومنع لله، فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكلُّ علمٍ لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم[١١].

١١ أحمد زرُّوق، قواعد التصوف، ص٤٩، قاعدة: ٣٣.

يقول الشيخ محمد أسعد أربيلي رحمه الله:
«الشيء الوحيد الواجب على الإنسان فعله أن يُحبِّب نفسه لله U القادر المطلق، فهو إن بلغ شرفَ المحبة فإن نيله نعم الدنيا والآخرة أمر طبيعي».



إن الظرافة والرقة المشاهدة في الإنفاق من فضائل أولياء الله العظيمة.

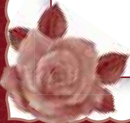
يقول الشيخ أبو الليث السمرقندي:

«على المنفِق أن يشكر الآخذ شكرًا جزيلًا، فبفضله سينجو من كثير من الابتلاءات والمصائب والمحن في الدنيا والآخرة، والأعظم من ذلك كله أنه سينال رضا الله تعالى».

لذلك كان الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو ووالدي الشيخ موسى طوبَّاش رحمهما الله يُراعيان الأدب في الصدقة والإنفاق أشد المراعاة، ويحرصان على عدم إيذاء الآخذين بالمنة، فكانا يكتبان على الظرف: «السيد .... المحترم، نشكرك على قبولك هذا الظرف». وبذلك كانا يعبِّران عن أعظم مشاعر الشكر في قلبيهما تجاه آخذي الصدقات، لأنهم وسيلة لنيل رضا الله سبحانه وتعالى.



يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:
«أنفقْ مالَك ومُلكك كله، واشترِ قلبًا ليكون نورًا لك في قبرك حين تمكث وحيدًا هناك في ظلام حالك».



علامات أولياء الله الفارقة

سؤال: شيخنا الفاضل، هل لنا أن نسأل في ضوء ما ذكرت من الأمثلة عن خصال أولياء الله تعالى التي تميزهم عن سواهم؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

- يذكر الشيخ إبراهيم حقي الأرضرومي في كتابه «الإنسان الكامل» خلاصة هذا الموضوع، فدعنا ننقل من كتابه خصلًا من خصالهم:

١. لقد بلغ أولياء الله درجة عظيمة في حب الخالق، فما عاد للملذات الفانية مكان في قلوبهم؛ أي إن الحب المشروع صار سُلَّمًا لهم لبلوغ حب الله، فتجلى فيهم حب الله، وصاروا لا يرتوون من نبع ذلك الحب الإلهي.

وكان رسول الله r يدعو بدعاء سيدنا داود u فيقول:

يقول الشيخ بهاء الدين نقشبند:

«ليس المقصود من الذكر قول: (الله) و(لا إله إلا الله) فحسب، بل قد يكون الانتقال من السبب إلى المُسبِّب، وإدراك أن النِعم تأتي من المُسبِّب؛ أي من الله تعالى».



«اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد».[١٢]

٢- يراعي أولياء الله الالتزام بالشريعة المطهَّرة، ويحيون على أساسها، ويحثون الناس على تطبيقها. وأكثر ما يهتمون به أوقات السحر كي يطبقوا الشريعة تطبيقًا تامًّا.

فالأسحار:

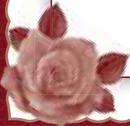
- وقت للاستغفار.
- ووقت لتجديد الإيمان بالتفكر في كلمة التوحيد كل مرة.
- ووقت للسلام على النبي r وعرض محبتنا عليه.
- ووقت في ظلمة الليل للإعداد لدخول القبر.

وكما أن في أجسامنا مراكز ملموسة مثل القلب، والرئتين، والكبد، والمعدة، ففيها أيضًا مراكز روحانية نحييها بالذكر في الأسحار.

١٢ الترمذي، الدعوات، ٣٤٩٠/٧٢.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اذهب واجلس عند باب القلب، وانتظر.
فذلك المحبوب الخفي يأتي في منتصف الليل
أو وقت السحر».



فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

{... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[13]

أي إن الأسحار وقت لإرواء ظمأ الإنسان المعنوي.

فحينما يحيي المرء الأسحار، فإن القلب سيقاوم أهواء النفس في النهار، وحينما يبتعد عن تلك الأهواء، سيكون مستعدًا لليل، فيملأ قلبه كرَّة أخرى بالروحانيات في الليل.

٣- يراعي أولياء الله الحلال في الطعام، ويتجنبون المشبوه منه.

يقول سفيان الثوري رحمه الله:

«إنما يكون دين المرء بقدر مراعاته الحلال والحرام في مطعمه ومشربه».

٤- يعيش أولياء الله في حال من التوكل والتفويض والتسليم والرضا.

سُئِل عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ماذا تحب؟»

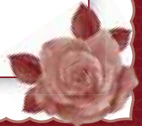
---

١٣ الرعد: ٢٨.

ثمة مؤثِّران عظيمان في روح الإنسان:

اللقمة الحلال التي تدخل فمه،

والأحوال الروحانية لمن يصاحبهم.



فقال: «إنما أحب ما قُدِّر لي. ما أحب إلا حكم الله تعالى».

أي إنه كان يحيا راضيًا بما قُسِم له.

٥- قلوب أولياء الله مطمئنة، ويحمدون الله تعالى، ويتفكرون في عظمته كل حين.

يقول الله تعالى:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[١٤]

٦- أولياء الله لا يتبعون أهواءهم وشهواتهم ولا يهتمون بأمور الدنيا.

فأهواء النفس ولذاتها عندهم كالألعاب التي ينشغل بها الصغار، فتراهم يبحثون دائمًا عن رضا الله سبحانه وتعالى.

٧- تخلى أولياء الله عن أنانيتهم بإدراكهم عجزهم وفنوا في حب الله تعالى.

فالنهر حينما يصب في البحر لا يبقى له وجود.

---

١٤ العلق: ١.

إن عيش حياة بعيدة عن التقوى والعبودية لله تعالى، والاعتماد على مقولة: «شيخي سينقذني!» إنما هو غفلة وجهل لا يقبله التصوف الحقيقي البتة، بل هو إفساد للتصوف.



وكما قال أحد أولياء الله:

«حينما تخرج من بين الخلق، يبقى رب الخلق».

فهذا هو الوصال الحقيقي.

إن أولياء الله لا يرون لأنفسهم وجودًا أمام عظمة الخالق. ومن المعلوم أن كل شيء يبدأ بعد بلوغه الفناء.

ويدرك أولياء الله نعمة ربهم العظيمة إذ جعلهم مسلمين من أمة محمد خاتم النبيين، ويحيا كل واحد منهم عبدًا عاجزًا لله تعالى.

ويعلم أولياء الله أنهم ما جاؤوا للدنيا من أجل التنافس على المناصب والمقامات ولا الشهرة والتمتع بالملذَّات، بل ليعبدوا الله تعالى حق العبادة مدركين أنهم إلى الفناء صائرون، ويحيون دائمًا متضرعين إلى المولى Y.

ونجد- مع الأسف- من العوام في هذه الأيام من يقول: «شيخي سيمسك بيدي يوم الحشر، ويأخذني إلى الجنة» وهذا فهم خاطئ قطعًا، وليس له علاقة

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله:
«اشكر الله إن عملت خيرًا، فهو سبحانه قد وفَّقك لذلك، ولم يجعلك- بلطفه وإحسانه- تضيع عمرك هباءً».



بما يعلِّمه أولياء الله تعالى وأهل الحق من الشيوخ والعلماء.

فعاقبة العباد يوم القيامة مجهولة في الإسلام ما عدا الأنبياء والمبشرين بالجنة. وعاقبة شيخه الذي «سينجيه» مجهولة، وعاقبة المريد مجهولة أيضًا.

يقول رسول الله r وهو صاحب الشفاعة العظمى:

«...يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية عمة رسول الله، اعملا لما عند الله، إني لا أغني عنكما من الله شيئًا».[١٥]

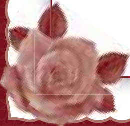
فعيش حياة بعيدة عن التقوى والعبودية لله تعالى، والاعتماد على مقولة: «شيخي سينقذني!» إنما هو غفلة وجهل لا يقبله التصوف الحقيقي البتة، بل هو إفساد للتصوف.

٨- جعل أولياء الله كل نعمة ممنوحة لهم بضاعة للآخرة.

١٥ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ٢٥٦؛ البخاري، المناقب، ١٣-١٤؛ مسلم، الإيمان، ٣٤٨-٣٥٣.

قال رسول الله r :

«يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية عمة رسول الله، اعملا لما عند الله، إني لا أغني عنكما من الله شيئًا»



يقول المولى Y:

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...} [١٦]

فهذا يعني أنه لا بد من التضحية لنيل رضا الله، ورضا الله سعادة عظيمة تحرر العبد من الخوف والحزن في الآخرة.

٩- قلوب أولياء الله منبع الرحمة.

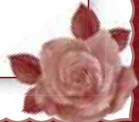
إن أولى ثمار الإيمان الرحمة. والمؤمن لا يكون محرومًا من الرحمة. ولا يمكن له أن يتجاهل هموم الجوعى والمحتاجين والمرضى والغرباء واليتامى والمساكين، سواء أخفوا تلك الهموم أم أظهروها.

ولا يربي الإسلام إنسانًا أنانيًّا لا يفكِّر إلا بنفسه، بل إنسانًا يؤثر على نفسه، والإنسان المؤثِر مستعد دائم للتضحية.

---

١٦ التوبة: ١١١.

ترى المؤمن مواسيًا الناس في همومهم ومحنهم، وكأن قلبه اتسع ليجتمع فيه همُّ كل مصاب. فغدا عالمه المعنوي منبع الرحمة التي تعمُّ المخلوقات كلها.



يُروَى أن موسى u قال: «يا رب أين أبغيك؟» قال: «أبغني عند المنكسرة قلوبهم».[17]

فالإنسان الرحيم:

- يكون مخلصًا صادقًا في أعماله، ولا ينتظر أجرًا من الناس لأعماله بل تكون كلها لوجه الله تعالى.
- لا يكون فظًّا، بل ينشر الرحمة حيثما كان.
- يكون كالمطر يُحيي كل مكان يكون فيه.
- يكون كالشمس يضيء حتى الزوايا النائية.

١٠- يحيا أولياء الله في الدنيا متلذذين بمحبة الله وذكره.

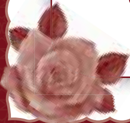
يقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله:

«لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فِيهِ من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فِيهِ من لذيذ العيش وقلة التعب».

---

١٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٢، ٣٦٤.

كما أنه من المحال أن تفقد الشمس قدرتها على بث الحرارة، كذلك من المحال أن ترى امرأً ذا روح سامية لا يتعاطف مع الناس، ولا يطلب خدمتهم، ولا يتأثر أمام المحن والشدائد والمصائب.



١١- لذة الدنيا وأهواء النفس لم يعد لها محل في قلوب أولياء الله.

عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر بالنبي r فقال له:

«**كيف أصبحت يا حارثة؟**»

قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا.

قال: «**انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**»

قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. قال:

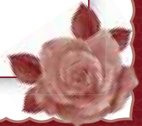
«**يا حارثة، عرفت فالزم**».[١٨]

١٢- يتَّبعون الوسطية في الجوع والشبع، والنوم والصحو، والصمت والكلام، والعزلة والاجتماع؛ أي

---

١٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ٥٧.

يحب ربنا عباده الصالحين، ويُلقي محبتهم في قلوب الناس، ويبقى ذكرهم حيًّا في القلوب بعد وفاتهم بنصائحم الحكيمة وقصصهم المعبرة.



في كل أحوالهم وحركاتهم وعباداتهم. وقسطاسهم الدائم سنة رسول الله.

١٣- يصدُقون في أقوالهم ولا ينكثون عهودهم.

١٤- يسترون العيوب ولا يفضحون أسرار الآخرين، ولا يتجسسون، ولا يفشون عيوب الناس التي يعرفونها، ويسترون خاصة أسرار القلوب. وهم في حال من التواضع، مقصودهم رضا الله تعالى لا غير.

١٥- أولياء الله أغنياء القلوب حتى إنهم مستغنون عن الناس أجمعين. فهم لحسن أخلاقهم لا يغضبون على أحد، ولا يحقدون أبدًا، ولا يقولون قولًا خبيثًا، وإن رأوا منكرًا، نهوا عنه بلين، وعزوا ذلك لعيب في بصرهم.

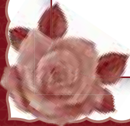
كان الشيخ محمد الباقي بالله رحمه الله إذا أخطأ أحد طلبته قال:

«إنما ذلك انعكاس للخصال السيئة فينا. فماذا يستطيع أن يعمل هؤلاء الطلبة؟ ما بأيديهم حيلة؟»

ثم حاسب نفسه ورأى إن كان فيها تقصير.

يقول الشيخ موسى طوبَّاش رحمه الله:

«يظن كثير من الناس أن الترقي المعنوي يكون بالعبادات فحسب، إن الترقي الحقيقي إنما هو بمعرفة العبد أنه دائمًا في نظر الله وسمعه، وتطبيق السنة المطهرة».



وكان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول:

«إن أذنبت ذنبًا، عرفتُ ذلك من تغير أخلاق دابتي وخادمي».

١٦- حركاتهم وسكناتهم وأحوالهم كلها عبادة.

فكل نفَس من أنفاسهم تسبيح، وعلاقتهم بالناس إما سؤالٌ عن حالهم لاهتمام بهمومهم، أو زيارةٌ تكون وسيلة لهدايتهم.

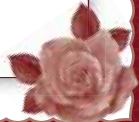
ويرى أولياء الله أنفسهم مسؤولين عن تغيرات العصر الذي يعيشون فيه.

١٧- يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بقول ليِّن.

يرشد أولياء الله الناس إلى الأخلاق الحميدة، ويدلونهم على الصراط المستقيم، ومَن يسمع كلامهم لا بد له أن يستفيد، فكلماتهم علم وحكمة لأنها للقرآن الكريم موافقة وللأحاديث الشريفة مطابقة. ولسانهم ترجمان للشريعة الغرَّاء.

يقول الشيخ إسماعيل عطا:

«كن ظلًّا في الشمس، وقفطانًا في البرد، وخبزًا في الجوع».



١٨- غاية أولياء الله من المُلك والمال عون الفقراء.

لذلك كسب المال لا يُغفِل قلوبهم عن الحق تعالى ولو لحظة، ولا يمنعهم عن إدراكهم أنهم تحت نظر الله تعالى كل حين.

١٩- قلوبهم ملاذ للناس كلهم.

يعامل أولياء الله كل امرئ بحسن ولين ورأفة ورحمة. ويظهرون المحبة والألفة للناس كي ينقذوهم من ظلمة طبائعهم السيئة، ويرفعوهم إلى أنوار روحانياتهم. لكن تلك المحبة والألفة تكون لوجه الله تعالى، لذلك يقبلها الله سبحانه وتعالى.

يُروَى أن أبا الدرداء t مر على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبونه، فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب [بئر]، ألم تكونوا مستخرجيه؟» قالوا: نعم، قال: «فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم»، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: «إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي».[١٩]

---

١٩ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ٢٢٥.

يقول المُلا جامي رحمه الله:

«أدخِل السرور في قلبٍ، فذاك هو الحج الأكبر. القلب أفضل من ألْف كعبة، الكعبة بناء شاده إبراهيم ابن آزر، أما القلب فمحل نظر الله الجليل الأكبر».



أي إن كره الذنب عند أولياء الله لا ينتقل إلى المذنب، بل يرونه كالطير المجروح، فيسعون لإرشاده وإصلاحه بالحسنى.

٢٠- لا فرق بين أولياء الله وغيرهم في الظاهر.

غير أن بواطنهم من حيث الروحانية والظرافة واللين لا مثيل لها.

٢١- يزيل أولياء الله الشكوك من الناس بتصحيح عقائدهم.

يوضِّح أولياء الله المواضيع المبهمة الغامضة، ولا يحيدون عن طريق أهل السنة والجماعة. والشاهد على ذلك وجود جوانب صوفية لدى كبار العلماء في تاريخ الإسلام مثل أئمة المذاهب الأربعة والإمام الغزالي الذين لجؤوا إلى طريق أهل السنة في مؤلفاتهم ودروسهم وحاربوا البدع وأهله.

٢٢- يعيش أولياء الله حياتهم مهتمين بتربية الأجيال القادمة.

لم يكن للأنبياء ميراث مادي بعدهم، وإنما كان ميراثهم الحقيقي الذين آمنوا برسالاتهم.

أفضل استقامة لنا السير على خطى

رسول الله r والسعي للتشبه به.



وأعظم ما يسعى إليه أولياء الله أن يتركوا وارءهم مَن يخدم دين الإسلام المبين، فهم الذين نالوا رضا الله تعالى فجعل محبتهم في قلوب العباد.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}[٢٠]

فالذين وصلوا إلى درجة الولاية مثل مولانا جلال الدين الرومي، وشاه نقشبند، وعزيز محمود هدائي سيظلون أبد الدهر محبوبين مقبولين لدى الناس كلهم.

٢٣- يسعى أولياء الله ليكونوا مع الصادقين ويوصون الناس بذلك.

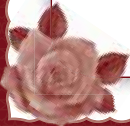
ينصح الشيخ عبيد الله أحرار رحمه الله أحبابه متحدثًا عن هذا الموضوع:

«إن صحبة المتساهلين في الدين والغافلين عن رب العالمين يفضي إلى فتور القلب، وتشوش الروح، وتعاسة الفؤاد».

---

٢٠ مريم: ٩٦.

أولياء الله مثل شاه نقشبند ومولانا جلال الدين الرومي وعزيز محمود هدائي صاروا إلى الأبد أحباب الناس. أحبوا الناس وأحبوهم، واستمر حب الناس لهم حتى بعد وفاتهم.



وفي يوم من الأيام أحسَّ أبو يزيد البسطامي رحمه الله بالقلق داخله، ولم يستطع التخلص من هذه الحال على الرغم من محاولاته، فقال لـمَنْ كان معه في المجلس: «انظروا هل بيننا غريب يجلس معنا؟»

فبحثوا، لكنهم لم يجدوا أحدًا، غير أن أبا يزيد البسطامي أصرَّ على ذلك وقال:

«ابحثوا جيدًا، وانظروا حيث العُصي»، ثم بحثوا مرة أخرى ووجدوا عصًا لرجل غافل، فأخرجوها، فعادت طمأنينة القلب لأبي يزيد البسطامي.

وهذا مثال لافت يُظهِر تأثير انعكاس الأحوال.

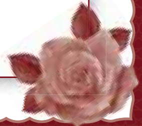
٢٤- أولياء الله دقيقون في مسألة القرآن الكريم.

يصقل أولياء الله مرآة قلوبهم بالقرآن دائمًا. فنبينا r كان يتلو القرآن ما استطاع. وكانت تلاوته للقرآن بالترتيل والتأني والتدبر مراعيًا تجويد الآيات.

وصفوة الكلام أن أولياء الله تعالى هم ورثة الأنبياء الذين يعيشون حياتهم على نهج القرآن والسنة.



لا يغدو المرء مؤمنًا مفلحًا في الآخرة إلا باتباع القرآن الكريم والسنة المطهرة، أي بالتأسي بحياة رسول الله r .



الرابطة في التصوف

سؤال: هناك كثير من الأقاويل عن الرابطة، منها مدح وأخرى ذم، ماذا ينبغي أن يكون الأساس في هذا الشأن؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

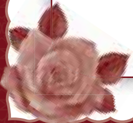
الرابطة سعي المريد لتقليد أعمال مرشده الصالحة وأحواله الحسنة بتجديد محبته له دائمًا.

والمرشد الأكمل والمعلم الأفضل إنما هو نبينا محمد r، والصحابة الكرام هم أول وأفضل مثال للمريدين.

لقد كان الصحابة الكرام في حال رابطة مع رسول الله r، فكان لكل واحد منهم رابطة محبة تختلف درجتها باختلاف أحواله.

فسيدنا أنس بن مالك t مكث خادمًا للنبي r عشر سنوات منذ أن كان في العاشرة من عمره، فكانت لديه رابطة محبة قوية للنبي عليه الصلاة والسلام حتى إنه قال ذاكرًا النبي r :

الرابطة هي الحفاظ على المحبة لتبقى حيَّة،
أما المحبة فتكون لله تعالى ولرسوله وللعباد الصالحين.



«شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله r . وشهدته يوم موته، فما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله r ».[21]

وكذلك كان حال عبد الله بن عمر V إذ كان يتذكر كل أحوال النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يمشي حيث مشى النبي عليه الصلاة والسلام في حياته لعِظَم رابطة المحبة في قلبه.

عن جرير بن عبد الله البَجَلي أنه ساوم رجلًا بفرس فسامه، فسامه الرجل خمسمئة درهم إن رأيت ذلك؟ فقال له جرير: فرسك خير من ذلك، ولك ستمئة حتى بلغ ثمانمئة، وهو يقول: إن رأيت ذلك؟ فقال جرير: فرسك خير من ذلك، ولك ستمئة حتى بلغ ستمئة حتى بلغ ثمانمئة، وهو يقول: إن رأيت ذلك؟ فقال جرير: فرسك خير من ذلك، ولا أزيدك؟ فقال له الرجل: خذها؟ فقيل له: ما منعك أن تأخذها بخمسمئة؟ فقال

21 الدارمي، مسند، جـ ١، ٢٢٣.

يقول الشيخ عبيد الله أحرار رحمه الله:
«أيمسي المرء كافرًا حين يكون قلبه مرتبطًا بمؤمن ويشعر بالمحبة تجاهه ولا يكون كافرًا حين يكون قلبه معلَّقًا بالمال والمُلك وما شابههما من الرغبات الدنيوية النفسانية؟».

جرير: لأنا بايعنا رسول الله عليه الصلاة والسلام على أن لا نغش أحدًا.[٢٢]

فرابطة القلب هي التي تحفظ المرء من الوقوع في الخطأ، وتجعله على استقامة دائمًا، وتحبِّب إليه طاعةَ الله ورسوله. وأفضل أشكال الرابطة تلك التي كانت بين رسول الله r وسيدنا أبي بكر الصديق t .

لقد كان أبو بكر t صاحبَ النبي r في الغار ورفيقَه في الهجرة، و«ثَانِيَ اثْنَيْنِ» كما جاء في القرآن الكريم. وهو الذي فدى رسول الله بكل ما لديه. وكان يتذكر النبي بعد وفاته بقلبه كل حين، وكأنه يشعر بأنفاس النبي في قلبه.

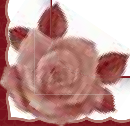
والشاهد على ذلك ما يرويه معاذ بن رفاعة عن أبيه أنه قال: قام أبو بكر الصديق على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسول الله r عام الأول على المنبر ثم بكى.[٢٣]

وأما سيدنا بلال الحبشي t فإنه لم يستطع أن يؤذن بعد وفاة النبي r لحزنه على فراقه.

---

٢٢ ابن حزم، المحلى، جـ٧، ٣٦١.
٢٣ الترمذي، الدعوات، ١٠٥.

يقول الشيخ سامي أفندي رحمه الله تعالى:
«لا يلزم التفكير في المرشد في الرابطة، بل اللازم المحبة، لأن الإنسان دائمًا يضع حبيبه أمام عينَي فؤاده».



وزار المدينة المنورة بعد سنوات، فأصرَّ حفيدا النبي الحسن والحسين على أن يؤذن بلال، فشرع يؤذن لكنه بكى ولم يستطع أن يكمل الأذان إذ لم يرَ رسول الله r في المحراب.

فهذا هو الأساس عندنا في الرابطة: رابطة المحبة بين النبي وأصحابه. وحسبنا هذا المثال أساسًا لنا. ومحبة نبينا الكريم r درجة للوصول إلى «محبة الله».

أما التطرف في هذا الأمر وإفساد التوحيد الذي يعد روح الإسلام وفتح الباب للشرك فهو أمر غير مشروع قطعًا.



سؤال: شيخنا الفاضل، ما موقع الرابطة في التصوف؟ وكيف تكون الرابطة؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

يحتاج الإنسان دائمًا إلى أخذ العلم بتقليد مَن هم في الطليعة واتباعهم.

وقد جعل الله U لنا مجتمع الصحابة الكرام قدوةً لنا.

إن الذي لا يعيش محبة رسول الله لا يذوق طعم المحبة الحقيقية، فبذور المحبة الحقيقية لا تنبت إلا في تراب محبته عليه الصلاة والسلام.



وإذا قلَّبنا صفحات التاريخ نجد أن الحكَّام العادلين الأتقياء، والعلماء الربَّانيين، وأولياء الله على وجه الخصوص قد ساروا على خُطى الصحابة الكرام، وعاشوا كل لحظة في حياتهم في حال رابطة محبة مع رسول الله r .

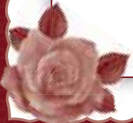
فعمر بن عبد العزيز رحمه الله كان يخشى أن يعاتبه رسول الله r يوم القيامة إن لم يؤدِّ واجبه نحو أمته، وكان يدرك المسؤولية الملقاة على كاهله، فيحرص على أداء ما عليه بدقة؛ لذلك كانت خلافته القصيرة من ألمع العهود في التاريخ الإسلامي.

لقد كان أولياء الله مع رسول الله تعالى كل حين.

إن المحافظة على احترام المرشد ومحبته في التصوف يعطي حيوية معنوية للمريد، فمحبة الصالحين لا تقل أهمية عن صحبتهم، إذ لها فوائد وتأثيرات عجيبة.

والله تعالى يحث المؤمنين أن يكونوا مع عباده الصاديق والصالحين، إذ يقول في كتابه الكريم:

نبينا الكريم r مركز المحبة الإلهية الذي يوصِل المحبات الفانية في الخلق إلى أسمى الدرجات، فهو منبع البركات والفيوضات.



{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[٢٤]

وهو سبحانه وتعالى هنا لا يقول: «كونوا صادقين» بل **{كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}**.

فتحلي المرء بالصدق نتيجةٌ طبيعيةٌ لمعية الصادقين، كما أن الفجور نتيجةٌ طبيعيةٌ لصحبة الفاجرين...

يقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«إن الأمر في قوله تعالى: **{كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** يعني الصحبة والمعية الدائمة، والمعية في الآية ذُكِرَت بصورة مطلقة، لذلك لها وجهان: أحدهما فعلي والآخر حُكمي. فأما المعية الفعلية فوجودُ العبد فعلاً في مجالس الصادقين بقلب حاضر، وأما المعية الحُكمية فتخيُّل أحوال الصادقين في غيابهم».

وليس المهم في الرابطة المعية الشكلية الظاهرة مع الصالحين، إنما معية القلب والروح. يقول الشيخ سامي أفندي رحمه الله:

---

٢٤ التوبة: ١١٩.

كان العارف بالله يونس أمرَه يخاطب الزهور الصفراء، فالعارفون بالله الذين يفهمون حتى لغة النباتات يعيشون وهم يقولون: «الله، الله» مع كل نفَس يتنفسونه في حلقة ذكر تجمعهم مع المخلوقات كلها.



«لا حاجة لتخيل المرشد في الرابطة، لكن لا بد من المحبة، فالمرء يتخيل حبيبه دائمًا».



سؤال: هل الارتباط بالشيخ بالنظر إلى صورته عمل مقبول؟

الشيخ عثمان نوري طوبّاش:

إن الصورة تحبس خيال الإنسان الذي يمكن أن يمتد إلى الأمور المجردة وتضع له حدودًا. وأحكام الإسلام في موضوع الصور معلومة. وصور الناس هي الجانب الظاهري، لكن المهم هو اللب والجوهر، أي العالَم الروحاني. وطريق التصوف طريق السير لا الصور. والمقصود من معية الصادقين والصالحين معيةُ سيرتهم لا صورهم. والصور الأساسية النافعة إنما هي اللمعات في العالم الداخلي، والذكريات والانطباعات التي تبقى في القلوب.

ولو كان الارتباط بالنظر إلى الصور أو الرسوم جائزًا، لَلجأ الصحابة الكرام إلى هذه الوسيلة إذ كان النقّاشون

يقول المفكر نور الدين طوبشو:
«لقد استمعنا إلى صيحات الوجد الصادرة عن مولانا جلال الدين... فهو وحده من غاص في بحر الطمأنينة، وما بقي لنا إلا أصداءُ دوامةِ وَجْدِه وعشقه، وهيهات هيهات أن نكون مثل مولانا».



كُثرًا. لكننا لا نجد في المراجع أي رواية تدل على أنهم فعلوا ذلك.

وكان والدي موسى أفندي رحمه الله إذا زار مكانًا ورأى صورة الشيخ سامي أفندي أو صورته معلَّقةً على جدار، نبَّهَ صاحب المكان قائلًا:

«لا تعلق هذه الصور! إنها بدعة لم تكن في عصر الصحابة الكرام. كان الواحد منهم يتذكَّر الآخر بأخلاقه الحسنة. إن الرابطة في طريقنا تكون بين القلوب لا في الصور».



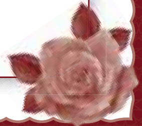
الفتوحات القلبية

سؤال: كيف شاركت الطرق الصوفية عبر التاريخ في انتشار الإسلام في أرجاء العالم؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

التصوف توجه المؤمن الساعي للكمال نحو المخلوقات بقلب يتحلى بالإيثار. وهو سعي لتلبية حاجات المحتاجين والمحرومين والغرباء برأفة ورحمة.

يقول المفكر محمد حميد الله:
«أنا مؤمن أن الذي سيحمل المحرومين من الهداية إلى نور الإسلام اليوم ليس السيف أو العقل، بل هو القلب، أي التصوف».



إن أشد ما قد يُحرَم منه الإنسان الحرمان من الإيمان والتقوى، لذلك كان المتصوفة الحقيقيون طوال التاريخ مشاعل إرشاد تضيء المجتمع. فأولياء الله أمثال عبد القادر الجيلاني، وبهاء الدين نقشبند، ومولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمرَه، وعزيز محمود هدائي، والإمام الرباني السرهندي، وخالد البغدادي وغيرهم كانوا ملاذًا وقناديل هداية في مجتمعاتهم.

لقد تربَّى سكان الأناضول تربية صوفية على مدى ألف عام. وكان العثمانيون حين حملوا راية الإسلام يطلبون دعاء الأولياء والصالحين، وكانوا لا يقتصرون على فتح البلدان بل يسعون لفتح القلوب وملئها بنور الهداية.

يشير الشيخ محمد حميد الله الذي يعد من كبار علماء الإسلام في القرن الماضي إلى أن أعظم التبليغ والإرشاد بركةً كانت على يد الصوفيين، فيقول:

«منذ أن بدأت العيش في مجتمع غربي في محيط مثل باريس، كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول النصارى

كانت الفتوحات المعنوية في العصر العثماني تأتي بعد الفتوحات الظاهرة التي تُزِيل الظلم، وكان دروايش المتصوفة والتجار هم المسلمون الذين يمثلون وجه الإسلام الطلق ويعيشون هذا الدين بأحوالهم.



للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي... والآن أنا مؤمن أن الذي سيخدم الإسلام اليوم لا سيما في أوربا وأفريقيا، ليس السيف أو العقل، بل هو القلب- أي التصوف- كما كان الحال في زمن «قزان خان» عقب الدمار والخراب الذي سبَّبه هولاكو...وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي r وطريق كبار متصوفة الإسلام لم يكن الانشغال بالكلام فقط أو بأشياء لا معنى لها، بل كان السير في أقصر طريق بين الإنسان وربه سبحانه وتعالى، والبحث عن تنمية الشخصية وتطويرها».

لقد كان الدراويش المتصوفة أول من ذهب إلى الأناضول والبلقان لتبليغ الإسلام وحمل رايته.

والذي يحمل راية الإسلام في أفريقيا هم الطرق الصوفية مع كثرة البعثات التبشيرية ومحاولات نشر النصرانية في تلك البلاد.

يقول المفكر محمد حميد الله:

«كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول النصارى للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي».



والذي يحيي الإسلام في القلوب في روسيا هم المتصوفة على الرغم من شدة وطأة الإلحاد على مدى سبعين سنة. ويذكر كتاب «الصوفي والمفوَّض» الذي يتحدث عن تأثير الإسلام والتصوف بصورة خاصة في المحافظة على هوية إخواننا في الدين لما كانوا في قبضة الحكم السوفياتي أن الإسلام بقي قائمًا حيث كان التصوف مع كثرة الضغوطات وشدة المضايقات.



سؤال: لماذا توجد طرق مختلفة في التصوف؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

إن حياة الزهد والتقوى التي يحث التصوف عليها كان يعيشها النبي وصحابته الكرام على أكمل صورة.

ومع مرور الوقت لم يعد المجتمع كله يعيش هذه الحياة المليئة بالروحانيات والفيوضات، بل اقتصرت على أولياء الله الذين ساروا على خُطى السلف الصالح وعلى الذين تتلمذوا بين أيدي أولئك الأولياء الصالحين.

هدفنا الاستقامةُ باستقامة رسول الله r ،
وجميع الطرق عدا التي سلكها طرق مسدودة.



وكانت غايتهم عيش الإسلام عيشًا يوافق لبه وجوهره، وأداء العبادات بخشوع وكما جاء في الكتاب والسُّنة.

لم يكن هدفهم إيجاد نمط حياة جديد أو طريقة عيش مختلفة.

غير أن الذين أرادوا أن يستفيدوا من مجالسهم ونصائحهم ويقتدوا بأحوالهم صاروا يتخذون مرشدًا معنويًا وشيخًا يُقتدَى به. ومن هنا ظهرت الطرق الصوفية التي تُنسَب إلى أسماء هؤلاء الشيوخ مثل: القادرية، والمولوية، والنقشبندية وغيرها.

وأما الجواب عن سؤال:

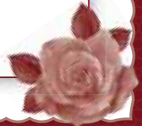
«لماذا ظهرت طرق مختلفة ولم تكن طريقة واحدة؟»

فهو يشبه الجواب عن سؤال:

«لماذا ظهرت مذاهب فقهية واعتقادية مختلفة؟»

لأن الطباع مختلفة والمشارب متنوعة، لكن مركزها جميعها واحد.

«الإنسان كالغابة، فكما أنك تجد في الغابة آلاف الخنازير والذئاب والحيوانات الأليفة والوحشية، كذلك تجد في الإنسان طباعًا حسنة وسيئة كثيرة». فلا بد من التزكية.



ومن أقوال أكابر التصوف:

«الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق».

لقد أُطلِق اسم «طريقة» على الأصول التي يتبعها كل فرع من التصوف في موضوع بلوغ مرضاة الله تعالى والتفكر والتحلي بالإحسان.

وتنقسم الطرق من حيث الأصول التي تتبعها إلى ثلاثة:

١ - **طريق الأخيار**: وهي الطرق التي تركز على العبادات والتقوى.

٢ - **طريق الأبرار**: وهي الطرق التي تركز على تربية النفس من خلال ضبطها وتقديم الخدمات الإسلامية.

٣- **طريق الشطّار**: وهي الطرق التي تسعى للوصول إلى الغاية من خلال المحبة والعشق والوجد.

وهذي الأوصاف الثلاثة موجودة في الطرق كلها ولكن بدرجات متفاوتة. فغايتها جميعها خضوع العبد لله U، والمرء ينتسب إلى الطريقة التي توافق طباعه وشخصيته.



قال رسول الله r :

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

[مسلم، الإيمان، ٢٤٧؛ الإمارة، ١٧٣]



لماذا العداء للتصوف؟

سؤال: ما أسباب التعريف الخاطئ بالتصوف في عصرنا؟ كيف بدأ العداء للتصوف؟ وكيف يمكن اتخاذ التدابير في هذا الشأن؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

من الطبيعي استهداف أهل الباطل للتصوف لدوره المؤثر في نشر الإسلام وعيشه بصورة كاملة. فالشجرة المثمرة تكون محط الأنظار دائمًا. والسارق لا يرغب بسرقة بائع الخرداوات بل بائع المجوهرات.

ثمة سببان أساسيان بصورة عامة للاعتراضات الموجهة للتصوف وهي:

الأول: الجهل بحقيقة التصوف.

والآخر: اتهام أرباب التصوف كلهم بذريعة التصرفات الخاطئة التي تصدر من المتصوفة الجهَّال أو الذين هم ليسوا أهلًا للتصوف.

حينما قدَّم أحد الطلاب لداود الطائي طعامًا، قال: «إذا أكلته كان في الحش، وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخورًا».



وقد ظهر من حين لآخر مَن استغل التصوف كما هو الحال في كل مجال. هناك من خرج ليقول: «أنا قطب هذا الزمان، أنا غوثه» فكان بهذا الادعاء البعيد عن روح التصوف قد وقع في الكبر وطلب الشهرة. وقد كان أمثال هؤلاء محط انتقاد المتصوفين الصادقين طوال التاريخ.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني رحمه الله:

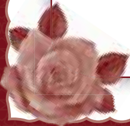
«اثنان لا يستطيع الشيطان نفسه أن يجعل في الدين فتنة مثل فتنتهما:

-عالِم حريص على الدنيا،

-ومتزمت محروم من العلم».

ينبغي في حياة التصوف الاقتداء بـ «الجاذبين» لا «المجذوبين» لأن المجذوبين مهما كانت قلوبهم مع الله تعالى فإن ملَكَاتهم الذهنية قد لا تكون صحيحة. فلا ينبغي نقد التصوف بما يصدر عن أمثال هؤلاء.

مَن شعر بحال المظلومين اليوم في سوريا واليمن وميانمار وأنفق عليهم، وجدَ طعم السعادة الحقيقية.



وليس من الصواب رفض التصوف بالنظر إلى أحوال أولئك الذين يظنون أنهم متصوفة من الجهال أو ذوي النيات السيئة أو مَن هم ليسوا أهلًا للتصوف. فقد يظهر العيب والخطأ والاستغلال في كل مجال. وليس بصعب على الأكْفاء تمييز السليم من العقيم والصحيح من الخطأ. وكما أنه ثمة مذاهب باطلة حادت عن الحق، فكذلك ثمة طرق باطلة حادت عن التصوف الحقيقي. فما ينبغي وضع أهل التصوف الحقيقي مع المنسوبين لمثل هذه الطرق الباطلة في كفة واحدة.

والواجب علينا نحن- أمة محمد- أن نمثِّل أخلاق المبعوث رحمة للعالمين قولًا وفعلًا على قدر طاقتنا وتبليغ رسالته ما استطعنا. فإن أدَّينا هذا الواجب كما ينبغي، فلن يبقى أثرٌ للتهم والافتراءات على التصوف الذي لنا أن نقول إنه جوهر الإسلام وباطنه.



قال رسول الله r :

«إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه.....



الحياة على التقوى طول العمر

سؤال: بماذا توصون إخواننا الشباب في موضوع تزكية نفوسهم والارتقاء في درجات النفس؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

يقول رسول الله r :

«**إن الله ليعجب من الشاب ليست له صَبوة**».[٢٥]

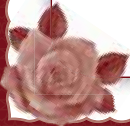
فنفهم من هذا الحديث أن تربية النفس من أجل ترك الأهواء والشهوات واجبٌ عظيمٌ في سن الشباب. فالذي لم يمر من مرحلة تربية النفس ولو كان دارسًا لعلوم الدين قد يحيد عن مبادئ الإسلام حين يبدأ العمل، ويبني أسرة، ويكون في مواقف مختلفة في حياته الاجتماعية.

ولا بد إلى جانب تربية النفس من مراعاة مجموعة من الأسس للحفاظ على الاستقامة. **وأول هذه الأسس** -ولعله أعظمها- معيةُ الصادقين والصالحين؛ أي إن

٢٥ أحمد، مسند، جـ ٤، ١٥١.

....ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

[البخاري، الرقاق، ٣٨]



موضوع الأصدقاء والجوار عظيم الأهمية، فالمرء يغدو صادقًا صالحًا بصحبة أهل الصدق والصلاح صحبةً بالقلب، وبانعكاس أحوالهم عليه.

ثمة أشعة كثيرة في الطبيعة مثل أشعة ألفا وبيتا وغاما والأشعة فوق البنفسجية وغيرها... هذه الأشعة لا تراها أعيننا لكن لها جميعها تأثير، والأشد تأثيرًا منها الأشعة التي تصدر عن القلب والعين، النافعة منها نقول عنها: فيوضات، وروحانيات؛ والضارة منها هي الغفلة، والقسوة. لذلك يقول المولى Y :

{...وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[٢٦]

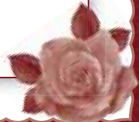
{...فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٢٧]

والأساس الثاني: الدقة في أداء العبادات، لا سيما أداء «الصلاة» بخشوع في جماعة. فالله تعالى يكفل لمَن يصلي صلاته بجسده وبحضور قلبه أن يحفظه من الوقوع في الفحشاء والمنكر، إذ يقول:

٢٦ التوبة: ١١٩.

٢٧ الأنعام: ٦٨.

ليس أنفع ولا أروع للمسلم من صحبة الأولياء والصالحين، فإن لم تكن الصحبة مع مثل هؤلاء، فلا ريب أن الصحبة ستكون مع الضائعين والغافلين.



{...وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...} [٢٨]

والأساس الثالث: التقوى. علينا أن نحذر من الحرام والمكروه وحتى الشبهات حبًّا لله تعالى وخوفًا منه.

إن حال الناس اليوم كحال أغصان الأشجار أمام السيول العارمة، ينجرون نحو دوامة الذنوب والآثام بتأثير البرامج الخبيثة على شاشات التلفاز، ومواقع «الإنترنت» المشبوهة، والإعلانات التي تحض على الإسراف، وسيطرة ثقافة العولمة.

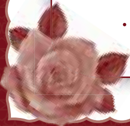
والسبيل للخلاص من غفلة «الاتباع الأعمى» التحلي بقلب يخشى من فقدان رضا الله تعالى ومحبته؛ أي قلب مليء بالتقوى. فعلينا إن أردنا الحفاظ على الاستقامة أن لا ننسى أن الإسلام يعني حياة تقوى طول العمر تنظِّم كل نفس من أنفاسنا، وليس يعني طقوسًا ومراسم تكون في أيام محددة.



٢٨ العنكبوت: ٤٥.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«السيف يقطع عنق مَن له عنق ... ولكنَّ ضربته لا تجرح الظلَّ لأنه على الأرض ممدود». فلا بد لنا من التواضع والاقتداء بأحوال الصالحين.



سؤال: شيخنا الفاضل، بماذا توصوننا في موضوع تعليم أولادنا حياة التقوى التي تحدثتم عنها؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

لا بد من الاهتمام بأربع مسائل وأربع مراحل أثناء تربية الأولاد.

الأمر الأول: الحرص على الطعام الحلال. لأن اللقمة إن كانت من حرام أو شبهة، فإنها تنفث السم في الحياة المعنوية، فيقسو قلب المرء، ويتكاسل في أداء العبادات، ويتأخر في تقديم الخدمات في سبيل الله U .

وإن كانت اللقمة من حلال، فإنها تزيد من رقة القلب والروحانية، وترغِّب بالأعمال الصالحة، وتغدو غذاءً للجسم والروح معًا وشفاءً للصدور.

كان الشيخ بهاء الدين نقشبند يزرع بيده ما يأكل ويحرص على اللقمة الحلال. كان يزرع في حقله كل سنة الشعير واللوبياء والمشمش.

يقول أبو الحسن الخرقاني رحمه الله:

«اختم على فمك وسائر الأعضاء حتى لا تأكل إلا من الحلال، ولا تعمل إلا بالإخلاص».



وكان دقيقًا في تحري الحلال في الحيوانات التي يزرع بها، والأرض التي يزرع فيها، والبذور التي يستعملها، والماء الذي يسقي به؛ لذلك كان كثير من العلماء يحرصون على حضور مجالسه والأكل من طعامه الحلال.

وكان الصالحون آنذاك يأخذون الخبز من بيت الشيخ نقشبند إذا كان لديهم مرضى، ويقولون:

«فليأكل المريض هذا الخبز شفاءً له».

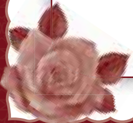
وقال الشيخ نقشبند مرة لمريد شكى له ضعف أحواله المعنوية:

«اذهب وانظر في طعامك أحلال هو أم لا». فلما ذهب المريد ونظر في طعامه، وجد في موقده قطعة من حطب لم يعرف إن كانت حلالًا، فتاب فورًا.

لقد كان أولئك الصالحون يدققون حتى في حال طابخ الطعام. إذ زار الشيخ نقشبند بلدة يومًا، فجاءهم رجل بطعام فقال الشيخ:

وُضِعَ لشاه نقشبند طعام يومًا، فقال:

«لا نستطيع أكل هذا الطعام، فقد طُبِخ بغضب. كان الذي عجن الطعام وطبخه غاضبًا».



«لا نستطيع أكل هذا الطعام، فقد طُبِخ بغضب. كان الذي عجن الطعام وطبخه غاضبًا».

ويعبِّر مولانا جلال الدين الرومي عن تأثير اللقمة الحلال والحرام في قلب المرء بقوله:

«انقطع الإلهام عني في هذا السَّحر، فعلمتُ أن بعض اللقيمات المشبوهة قد دخلت جسدي. إن اللقمة الحلال يصدر عنها العلم والحكمة، ومحصولها العشق والرحمة. واللقمة التي تزيد من النور والكمال هي اللقمة التي تكون من حلال. وإذا ما ظهرت الغفلة من إحدى اللقيمات، فاعلم أن تلك اللقمة إما لقمة مشبوهة أو حرام».

فمِن أين تبدأ مراعاة اللقمة الحلال؟

تبدأ من حين يكون الإنسان في رحم أمه...

فالطعام الذي تأكله الأم ينتقل بالدم إلى جنينها، وبالحليب بعد ولادته، فيؤثر في الطفل على قدْر مراعاة الحلال في الطعام.

يقول عبد الله بن عمر V:

«إن الله تعالى لا يقبل عباداتكم ما لم تجتنبوا الحرام والشبهات حتى لو انحنت ظهوركم من كثرة الصلاة، ونحلت أجسامكم من كثرة الصيام».

إن كل كلمة تخرج من فم الأم تعدُّ لبِنةً توضَع في شخصية الطفل؛ أي إن قلب الأم أول فصل دراسي يتعلم الطفل فيه.

لذلك نرى أن أصحاب الشخصيات المعتبرة أكثرهم تربوا على أيدي أمهات صالحات.

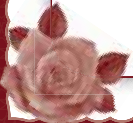
الأمر الثاني: تربية الوالدَين الأولاد تربية إسلامية، فالعود يسهل ثنيه حين يكون طريًّا.

ولا بد من أجل ذلك أن يكون الوالدان صالحَين، عندها يكون الأولاد قرة عين لهما. فالأولاد يقتدون بوالدَيهم، ويتعلمون بالتقليد. فإذا صلحَ الأب والأم، صلح الأولاد بتقليدهما.

الأمر الثالث: تعلم العلم النافع في الدنيا والآخرة.

علينا أن نسعى لتعليم الأولاد القرآن والعلوم الشرعية. وعلى الآباء والأمهات أن يرسلوا أولادهم إلى أفضل المدارس من حيث اتباعهم لأوامر الدين، وعلى كل واحد منهم أن يسأل نفسه:

الأمهات الصالحات والآباء الصالحون الذين يربون أولادهم على الإسلام هم أهلٌ للشكر طول العمر.



في أي مدرسة تكون فلذة كبدي أقرب إلى مرضاة الله تعالى؟

وفي تعلم أي العلوم يحفظ إيمانه وتقواه؟.

على الآباء والأمهات أن يسعوا لفوز أولادهم في الآخرة لا كسبهم في الدنيا...

الأمر الرابع: توجيه الأولاد نحو صحبة أصدقائهم الصالحين.

فالإنسان يتأثر بشخصية مَن يرافقهم شاء أم أبى، لذلك ينبغي أن نعلم أين يقضي أولادنا أوقاتهم.

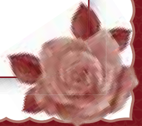
ولا ننسى أن كلب أصحاب الكهف قد ذُكِرَ في القرآن لصحبته الصالحين وتعلقه بهم.

أما امرأة سيدنا لوط u وامرأة سيدنا نوح u فقد جاء في سورة التحريم أنهما خسرتا الآخرة لصحبتهما الفاسقين.



يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله:

«لقد بلغ قطمير –كلب أصحاب الكهف– شرفًا عظيمًا لصحبته الصادقين، حتى ذُكِرَ في القرآن الكريم».



سؤال: يزيد الميل إلى الدنيا يومًا بعد يوم، شيخنا الفاضل: كيف نضمن الانتقال من حب الماديَّات إلى حب الروحانيات؟

الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

إن السبيل إلى هذا الأمر هو «التفكر بالموت» وعدم نسيان الآخرة.

كان رسول الله r إذا أصابته نعمة أو ظفرَ قال:

«**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»[٢٩]

فكان بذلك يمنع ميل القلوب إلى الدنيا أو إصابتها بالكبر والغرور. وكان إذا دهمه خطب أو محنة قال أيضًا: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**» فيحذِّر بذلك القلوب المؤمنة من عدم الرضا بقدر الله إذا كانت في حال يأس وشكوى وأسى نتيجة المحن والابتلاءات في الدنيا؛ فأعطى عليه الصلاة والسلام لأمته بذلك الوصفة المعنوية للبقاء في طمأنينة وسكينة وتوازن في كل الأحوال.

---

٢٩ البخاري، الرقاق، ١.

ويقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله:

«أما زوجة سيدنا نوح وزوجة سيدنا لوط فقد دخلتا النار لتعاطفهما مع الفاسقين وصحبتهما إياهم [فلم ينفعهما كون زوجيهما نبيِّين]».



والحق أن روح الإنسان إن بقيت بعيدة عن الروحانيات، فلن تنجو من الضائقات لا في السراء ولا في الضراء، ففي الأولى ينبغي ضبط الإنسان وفي الأخرى مواساته. لذلك يحتاج الإنسان في السراء والضراء إلى إرشادات التصوف التي تجعل من أصول التربية النبوية أساسًا لها.

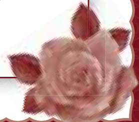
إن هذه الدنيا دار امتحان، فالمولى Y يقول:

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[٣٠]

فعلينا أن نلجأ إلى رحمة الله تعالى في أحوالنا كلها، علينا أن نجعل الآخرة التي هي الحياة المبتغاة أساسًا لنا في حياة الدنيا. وعلينا ألا ننسى أبدًا أن المستقبل الحقيقي الذي ينتظرنا إنما هو الموت، والفناء، والأنفاس الأخيرة، والقبر، والقيامة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط؛ أي إنه الآخرة وما

٣٠ العنكبوت: ٢.

إن الظَلَمة في الماضي والحاضر أمثال فرعون ونمرود وأبرهة وغيرهم كانوا أعداء للناس ووصمة عار على جبين الإنسانية، لم يكونوا محبوبين يومًا، وظلوا في صفحات التاريخ رمزًا للظلم بعد أن زال سلطانهم وباؤوا بالخسران العظيم.



فيها. فإذا كنَّا نتفكر بهذا الأمر بعقولنا وقلوبنا، فمن اليسير حينئذ حفظ أنفسنا من شرور الزمان.



العلم النافع

سؤال: بماذا تنصحون طلاب العلوم الشرعية؟

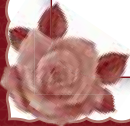
الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

ينبغي أولًا أن تكون النية خالصة صافية في تحصيل العلم، فلا يصيب القلبَ غرور العلم ولا ينجر إلى أهواء النفس.

حينما كان الشيخ خالد البغدادي يُلقَّب بـ «شمس الشموس» في العلم، ذهب إلى الشيخ عبد الله دهلوي لتزكية نفسه وتطهير قلبه. فلم يكلِّفه الشيخ دهلوي بالوعظ والتدريس في المحراب أو المنبر، بل بتنظيف الحمام والموضئ حتى يزيل عنه غرور العلم والأنانية التي يزرعها في نفس صاحبه.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله:

«عِشْ حياتك على الفضيلة حتى يترحم عليك الناس بعد وفاتك فيقولوا: (غابت شمس، وأفلَ نجم...) واترك وراءك أقوالًا حكيمة، وأجيالًا صالحة، وذكرًا طيبًا!».



ولمَّا بلغ الإمام الغزالي ذروة العلوم في زمانه، حاسبَ نفسه، فلمَّا وجد نية تحصيله العلم مختلطة بحب الشهرة والمقام، اعتزل الناس لستة أشهر، وتوسل إلى الله تعالى بقلب منيب.

فنفهم من ذلك كله أننا ما أتينا إلى الدنيا لطلب الشهرة واتباع الشهوات والأهواء بل لنكون عبادًا لله تعالى، حتى نستطيع أن ننال الدرجات العلى في الآخرة.

ولا يكون ذلك بالقراءة من السطور فحسب، بل لا بد من إصلاح أحوالنا وقلوبنا.

والأمر الثاني أنه ينبغي تحصيل العلوم الشرعية من الأكفاء من أهل التقوى والاستقامة.

عن ابن عمر V عن النبي r أنه قال:

«يا ابن عمر دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا».[٣١]

---

٣١ الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ص١٢١.

اخشوا من ثلاثة:

الفاقد للرحمة، والمُرائي، والمرتكب الحرام.



إن تحصيل العلم بغير تقوى واستقامة يؤدي إلى ظهور «مخرِّبي الدين» باسم «علماء الدين»، أولئك الذين يضعون حتى الحقائق الإلهية في ميزان أهوائهم النفسية وغاياتهم الشخصية، ويطمعون في الرغبات النفسانية مثل الثروة والشهوة والشهرة، ولا تكون فتاواهم وفقًا للكتاب والسنة بل لأهدافهم وأغراضهم.

لذلك فإن العالِم إن كان بعلم وبلا عمل وتقوى، فعاقبته الخسران المبين.

وهنا نذكر قول الإمام مالك رحمه الله:

«من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».[٣٢]



سؤال: شيخنا الفاضل، هل لي أن أسألكم كيف تقضون يومكم إن لم يكن في ذلك حرج؟

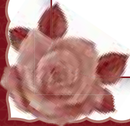
٣٢ علي القاري، مرقاة المفاتيح، بيروت، ١٤٢٢، جـ١، ٣٣٥.

ابتعدوا عن ثلاث مصائب:

الظلم الذي هو مصيبة معنوية،

والزلزلة التي هي مصيبة مادية،

والأحمق الذي يدعي العلم.



الشيخ عثمان نوري طوبَّاش:

أعتقد أنه بدل الحديث عن البرنامج الشخصي، من الأصح أن نتحدث عن برنامج يومي يؤدَّى بصورة جميلة حسب طاقة كل فرد. وإذا نظرنا إلى حياة النبي عليه الصلاة والسلام فإن البرنامج اليومي الذي سيكون ربحًا عظيمًا في الآخرة إن طبَّقناه يكون على النحو التالي:

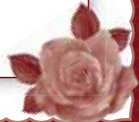
بدء اليوم باكرًا من وقت السحر، فالله تعالى يدعونا لنستغفره في الأسحار حتى يعفو عن ذنوبنا.

ويدعونا أن نُذهبَ عنا الجوع الروحاني في الليل، والاستعداد للنهار على هذا النحو، وبذلك تكون عندنا مقاومة للأهواء النفسانية في النهار. وإذا كان المرء في نهاره على تقوى، يكون مستعدًا لإحياء الليل.

وكما أن هناك تناوبًا بين الشمس والقمر، والليل والنهار، كذلك ينبغي أن يكون هناك تناوب في

أعينوا ثلاثة:

المريض، والغريب، والعاجز الذي لا يعلم قيمتَه مَن حوله.



إحياء الليل والنهار بذكر الله. علينا أن نملأ الأسحار بالروحانيات حتى نكون على استقامة في النهار، وعندما يكون نهارنا على استقامة، تكون ليالينا على أنوار.

التفكر العميق في أول اليوم بالمسؤوليات والمهام التي يأمرنا بها الله تعالى.

فنبدأ باسم الله ونحن نشاهد تجليات قدرته وعظمته في الأرض والسماء، فالله تعالى جعل هذا الكون لوحةً نرى فيها آثار جبروته وعظمته. وهو القائل:

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}[٣٣]

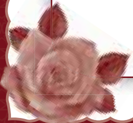
كي لا يكون هناك فراغ في حياتنا.

لقد كان نبينا الكريم r في حال تفكر دائم. وقد أكرمنا الله تعالى بالعلوم الدنيوية كي تكون وسيلة للتفكر. فإن استطعنا أن نتفكر دائمًا بعظمة ربنا، فإن ذكر الله U يُطمئِن قلوبنا وأرواحنا أكثر. وللتفكر أهمية عظيمة ولا بد من إثراء تفكرنا، فالتفكر مفتاح للإيمان.

٣٣ الانشراح: ٧- ٨.

ثلاثة سرُّ السعادة:

التواضع، والقناعة، والتفكر بالموت هادم اللذات.



وبناءً على ما ذكرنا فإن ما يلزمنا في كل الأحوال:

- السعي لأداء الصلوات المفروضة بخشوع وفي جماعة...

- تخصيص وقت في الصباح والمساء لقراءة القرآن الكريم والتدبر فيه...

- السعي للاستفادة الروحانية من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة...

- صحبة الصالحين والصادقين والمؤمنين المتقين...

- تجنب ألفة الفاسقين والغافلين. وحصر العلاقة بهم على الضروة أو بهدف التبليغ...

- حفظ أنفسنا من الانشغال بما لا ينفعنا. وإشغال عيوننا وآذاننا وألسنتنا وقلوبنا دائمًا بما يُرضِي الله تعالى، لا سيما الذِّكر...

وهنا من الضروري أن نضيف على ما ذكرنا أنه:

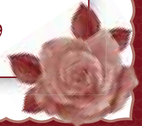
- على المسلم أن يرى نفسه مسؤولًا عن مجتمعه وما يدور حوله.

ثلاثة لا يبرحون الظلام:

الغافل الذي يقول ما لا يفعل،

والجاهل الذي يدعي الفضيلة،

والأحمق الذي لم يذق لذة ثمار القلب.



- على المسلم أن يكون اجتماعيًّا.

لقد عاش نبينا r من أجل أصحابه وأمته. وكانت الرحمة والسخاء صفتَين فطريَّتَين فيه.

عن عائشة c، قالت:

«ما شبع آل محمد r منذ قدم المدينة، من طعام بُرٍّ [حَب القمح] ثلاث ليال تباعًا، حتى قُبِض».[٣٤]

وقالت في رواية أخرى:

«لو شئنا أن نشبع شبعنا، ولكن محمدًا r كان يؤثر على نفسه».[٣٥]

أي إن جوعهم لم يكن من فقر، فقد كانت الهدايا تأتيه، وكان له نصيب من الغنائم، لكنه كان ينفق كل ذلك. لأن نبيَّنا الكريم r:

- كان ينسى جوعه بإشباعه بطون الجوعى؛ أي كان يشبع معنويًّا.

---

٣٤ مسلم، الزهد، ٢٠.

٣٥ البيهقي، شعب الإيمان، جـ٣، ١٣٩٦/٦١.

يفهم المرء معنى الحياة حقًّا في ثلاثة مواضع:

في الإيمان المصحوب بالمحبة،

والعبادة المصاحبة للخشوع،

والأنفاس الأخيرة التي تُنسي جميع اللذات الفانية.



- كان يطمئن قلبه حين يكون بلسمًا لهموم الفقراء.

- كان يرتاح حين يكون وسيلة لهداية الناس وتحليهم بالتقوى.

وقد سعى الصحابة الكرام في هذا الإطار سعيًا عظيمًا لتبليغ الدين الذي دخلوه في أنحاء العالَم، فبلغوا الصين وسمرقند والقيروان وأفريقيا.

ولم يكن الصحابة الكرام يجدون في أنفسهم التعب والنصَب، لأن مرشدهم رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يجد ذلك في نفسه البتة.

لقد كانوا y:

- يرتاحون بتبليغ دين الإسلام.

- يرتاحون بإرشاد إخوانهم المسلمين.

- يرتاحون بعون المحتاج.

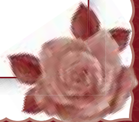
لا ينبغي للمسلم لا سيما المسلم الشاب أن يتعب، بل عليه أن يسعى من عمل خير إلى آخر...

لا يشبع المرء من لذة الدموع في ثلاثة مواضع:

دموع الفرح عند الوصال،

وفي المغفرة أي الفلاح الأبدي،

وفي الرحمة أي طمأنينة القلب.



ينبغي أن تكون في حياة المؤمن أنشطةٌ قيِّمة تُحيي يومَه، وتكون وسيلة في عيش الإسلام وجعل الآخرين يعيشونه.

فقد كان مما يسأل النبي r أصحابه y:

«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟»

«من تبع منكم اليوم جنازة؟»

«من أطعم منكم اليوم مسكينًا»

«من عاد منكم اليوم مريضًا».[٣٦]

فنفهم من هذا الحديث أنه من مسؤوليات كل مؤمن:

- التفريج عن الفقير والغريب والمسكين والمهموم بعونه ماديًّا ومعنويًّا.

- السعي ليكون وسيلة لهداية الناس إلى الدين المبين.

- السعي ليكون وسيلة لتقوى إخوانه المسلمين البعيدين عن التقوى.

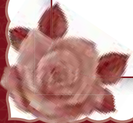
٣٦ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ١٢.

ارحموا ثلاثة:

المفتقر بعد الغنى،

والذليل بعد شرف المكانة،

والعالِم بين الجهَّال.



- السعي لتبليغ الدين بكل أحواله.

اللهم أكرمنا بعيش الإسلام واجعل إخواننا يعيشونه كما عاشه نبينا الكريم وأصحابه البررة.

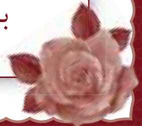
اللهم يسِّر لنا الاقتداء بمرشدنا وهادينا محمد r وأتباعه من أولياء الله الصالحين في جميع العصور.

آمين!



يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«أي أخي، إن شغلت فكرك بالطاعة فأنت في روضة من رياض الجنة، وإن شغلت فكرك بالمعاصي فأنت في وادٍ من أودية جهنم».





العلم الحقيقي

«تعلَّمْ، تعلَّمْ، لا بد أن تتعلَّم!»

يؤكِّد الجميع دائمًا على أهمية تحصيل العلم من أجل أبنائنا، وأجيالنا، ومستقبل أمتنا.

فيقضي أصحاب العلم سنوات طويلة من أعمارهم في طلب العلم، وتُنفَق مبالغ طائلة في سبيل ذلك، الأبنية والمساكن وغيرها...

فما النتيجة؟

طلبة يقتلون أستاذهم لأنه لم ينجِّحهم في مادة دراسية.

عنف في الشوارع، وعنف في الأسرة، وعنف في المستشفيات...

سجون مليئة بمَن لم يراعوا الحقوق...

والمشاكل كثيرة في تحصيل العلوم الدينية:

الحمد لله أنه هناك مدارس وكليات شرعية يتعلم فيها الطلبة العلوم الدينية.

لكن ما النتيجة؟

نسمع مع الأسف أن نسبة المصلين في هذه المدارس قليلة. وكثير منهم لا يتحلون بالتقوى والاستقامة.

فهذا يعني:

أن العلوم الظاهرة ليست كافية... فلا بد إضافة لها من العلوم الباطنة والعلم الحقيقي. فغاية قدومنا للدنيا بيّنها الله تعالى في قوله:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٣٧]

وهذه الغاية تشترط في الوقت نفسه أن يكون قلب المؤمن فيَّاضًا بالرحمة والرأفة.

وعليه أن يتفكر ويتدبر دائمًا:

ما العلم الواجب تحصيله؟

ما العلم الحقيقي الذي يخرج عن إطار العلوم التي ثبت عدم نفعها؟

ما الثقافة الحقيقية التي تنقذ أزقَّتنا وأُسَرنا من العنف؟

ما العلم الذي يصوننا من الجهل والجاهلية ويشبع حاجاتنا لمنافعه؟

---

٣٧ الذاريات: ٥٦.

علينا أن نعيد النظر في هذا الموضوع...

أولًا:

التطبيق شرط

العلم لا ينفع ما بقي في النظرية ولم يطبَّق.

إن للتطبيق مكانة مهمة في المدارس التي تدرس حتى العلوم الدنيوية بواسطة المعلمين والكتب. فلكل علم تطبيق إضافة إلى جانبه النظري. فكلٌّ يطبق في مهنته ومجاله.

فطالب الطب مثلًا يدرس في الجامعة لست أو سبع سنوات تقريبًا، ويشارك أساتذته في سنواته الأخيرة في المعاينة والمعالجة، ويعمل في المستشفيات، ثم يدرس الاختصاص لنحو أربع سنوات، فيكون دائمًا في التطبيق.

ويكون في نهاية مساعيه وجهوده مختصًّا بجزء من جسم الإنسان وقسم من الطب فقط.

والرياضي مثلًا ينبغي عليه أن يتدرب دائمًا في الرياضة التي يلعبها، ولا يكفيه الجانب النظري...

وكذلك الحال في جميع الأقسام، فلا يكون مدرس الرياضيات مدرسًا ما لم يحل المسائل، ولا يكون المهندس المعماري مهندسًا ما لم يخطط المشاريع، ولا يكون المحامي محاميًا ما لم ينظر في أدق تفاصيل القضية.

ولا شك أن ثقافة الإسلام لا تُعلَّم إلا بالتطبيق. فقد علَّم نبينا الكريم r الإسلامَ بأفضل صورة حين عاشه وجعل الناس يعيشونه.

وثقافة الإسلام لا تقتصر على مجال واحد فقط كما هو الحال في المهن والعلوم التي ضربنا لها مثلًا؛ بل تشمل مناحي الحياة كلها.

إن حياة المرء مليئة بالتقلبات، كيف سيعيش في أحواله المختلفة؟ الشباب والهرم، الصحة والمرض، الفقر والغنى، الحرب والصلح، وكيف سينال رضا الله تعالى؟ لقد علَّمنا نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام السبيلَ لذلك على مدى ٢٣ سنة، فأشاد بثقافة الإسلام حضارةً نادرة المثيل.

واليوم لنا حاجة لهذه الثقافة، وفي كل وقت لنا حاجة لها. نحتاج للتطبيق العملي لهذه الثقاقة.

ولا بد من إضافة الروحانيات إلى التطبيق في تعليم الدين.

التطبيق بمحبة ووجد

ينبغي للمسلم أن يعيش دينه بتقوى وإخلاص وصدق، فإن لم يكن كذلك، فإن حاله في تحصيل العلم يكون كما قال الله تعالى:

{...كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...}[٣٨]

٣٨ الجمعة: ٥.

أو تكون عاقبة تحصيلهم كعاقبة من يشترون {... **بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...**}[٣٩]

فلا مناص من الروحانية في تحصيل علوم الدين.

شمس التبريزي درويشًا محدود العلم، لكنه كان حكيمًا.

لقد تعلَّم مولانا الرومي كثيرًا من الأسرار والحكم والدقائق المعنوية من شمس التبريزي الذي كان في الثلاثينيات من عمره حين قابله.

فشمس هو الذي علَّم مولانا الرومي أن لا حق له بالدفء ما دام هناك مَن يشعر بالبرد، علَّمه الاهتمام بهموم المهمومين، علَّمه الرحمة والتضحية.

فهذا هو مكان التصوف في العلوم الدينية:

لقد عاش نبينا الكريم r الدينَ وجعل الصحابة يعيشونه، واستفاد الصحابة الكرام من روحانياته. فكان «الانعكاس» بينهم، أي صارت أحوالهم كأحواله.

لمَّا نزلت آيات الإنفاق، لم يقل أصحاب الصفَّة: «ليس عندما ما ننفق منه؟» فخرجوا ليحتطبوا وباعوا وجاؤوا إلى النبي r بما ربحوا لينفقوا، كل ذلك كي يطبِّقوا ما نزل من الآيات، فتعلموا الدِّين بعيشه والتلذذ به.

تعلموا العبادات بأدائها بخشوع ومحبة.

---

٣٩ التوبة: ٩.

تلذذوا بهداية الناس. وفرحوا بتفريج هموم إخوانهم.

فهذا هو تحصيل العلم الحقيقي.

ولا يكون هذا إلا بارتقاء القلب.

وهذا هو التصوف:

التعلم بعيش الإسلام والتلذذ بروحانياته.

يقول الشيخ يونس أمرَه:

العلم معرفة

العلم معرفتك نفسك

فإن لم تعرف نفسك

فما نفع العلم!

ونحن بدورنا علينا أن نسأل أنفسنا إذ نرى النتائج المؤسفة:

ما هذا العلم الذي نتعلمه؟

كيف يكون تعلم الدين بغير تطبيق ولا استقامة ولا روحانيات ولا معنويات؟

علينا أن نسأل كي نفهم العلم الحقيقي ونعمل بما يقتضيه، بوصفنا أبناء حضارة أنجبت أولياء وعلماء وصالحين.

عندئذ ننشئ أجيالًا جديدة تقتدي بهؤلاء الأكابر أمثال مولانا جلال الدين الرومي، وشاه نقشبند، ومحمد الفاتح، وعزيز محمود هدائي وغيرهم.





نفحات من القلب

التصوف اقتداء بحياة رسول الله r المباركة ظاهرًا وباطنًا بدافع المحبة. والتصوف تجليات أحوال رسول الله r الظاهرة والباطنة؛ لذلك فإن التصوف سعي للأخذ من روحانية النبي r .



لا تسلَم المجتمعات بمدَّعي العلم الذين يتهافتون على كتب الفلاسفة بأغلفتها السوداء التي أطبق عليها الغبار في المكتبات. إن الذي سيخرج الناس إلى السلامة والسعادة الحقيقية إنما هم الذين نشؤوا على كتاب الله وسنة نبيه وتحلوا بحِكم التصوف.



التصوف ضروري، والطرق الصوفية تشكَّلت لتسهيل هذه الضرورة.

يشرح الأديب نجيب فاضل الفرق بين التصوف والطريقة بالتشبيه التالي:

«تستطيع الذهاب من ضفة مضيق إلى أخرى سباحةً أو بقارب أو بسفينة. فإن شئتَ الذهاب سباحةً عليك أن تكون قويًّا أمام التيارات. ولا تسلم من الأمواج العاتية إذا ركبت قاربًا. غير أنك تكون في سلامة إذا ركبت سفينة يقودها قبطان ماهر أمين».



إن العدسة المكبِّرة تُركِّز حزم الأشعة القادمة من الشمس في نقطة واحدة فتحرق القش تحتها. وحينما تكون المحبة كلها لله ورسوله، فإنها تحرق جميع الأهواء النفسية في القلب، ويتطهر القلب من جميع عيوبه، فتتجلى عندئذ فيه أسماء الله تعالى الجمالية.



قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

«كونوا دعاه إلي الله وأنتم صامتون» قيل: كيف ذلك؟ قال: «بإخلاقكم».

فالناس يُعجبون بما يرون في شخصية المرء، لذلك فإن العلامة الفارقة للمسلم الحقيقي تمثيله شخصية الإسلام الحقيقية.

المؤمن مع الله U في ثلاثة مواضع:

- حينما يكون وحيدًا ذاكرًا الله لا يضره أحد بين الناس، أي يذكر المُسبِّب إذا رأى السبب، ويتلذذ بلذة المعية مع الله تعالى.

- وحينما يزرع الأمل في قلب يائس، كان الشيخ مولا جامي يقول:

«ارضِ قلبًا لعلَّ ثوابه يكون لك كثواب الحج الأكبر».

- وحينما يتحلى بالصبر الجميل ولا يلجأ إلى العصيان إذا وقع تحت ظلم ظالم.



ثلاثةٌ يعرفون أنفسهم:

- أصحاب القلوب التي تعفو ولا تضرها شيء حتى النسيم.

- أهل التواضع الذين يستحون حتى من ذكر أسمائهم.

- الذين ينظرون إلى المخلوقات التي هي أمانة الله برحمة.



ثلاث بعيدون عن الله U:

- الغافلون الذين يتهربون من خدمة الناس سعيًا لراحتهم.

- الذين لا يقتربون ممن هم في حال من الاضطراب والذل والسفالة مدعين رقة قلوبهم، أي الذين يخدعون أنفسهم.

- الذين يعينون الظالمين.



ثلاثة مبشَّرون برؤية الله تعالى:

- القلوب الصافية الصادقة.

- الذين يجدون نور الشمس في منتصف الليل، أي الذين يحيون الأسحار.

- الذين لا ينسون الموت وما وراءه فيحيون حياتهم بين الخوف والرجاء.



لا يمكن الوقوف في حدود ثلاثة أمور إلا كما يلي:

- الوقوف في حدود الرغبات يكون بتجنب الإسراف والعيش باعتدال.

- الوقوف عند حدود العقل يكون بعدم الوقوع في قبضة الأحلام، واستعمال العقل في إطار هدي القرآن والسنة.

- الوقوف عند حدود الحياة يكون بالعيش كما عاش النبي وأصحابه.



عندما تبتعد عن ثلاثة، ينبغي المسارعة إلى ثلاثة قبل فواتها:

- العبادة عند ترك الناس.

- التفكر والتدبر عند ترك الحركة.

- الاستعداد للآخرة عند ترك الاشتغال بالدنيا...

أي على المرء أن يعيش مستعدًا دائمًا لحياة الأبدية ومدركًا أن الدنيا مدرسة الآخرة.



الدنيا تغدو جنة بثلاثة:

- بالإنفاق باليد واللسان والقلب.

أي بالإنفاق بقول لين وسخاء وسرور ورأفة بالمخاطَب...

- وبإرشاد مَن يطلب الرشد...

- وبالعفو عن عباد الله وهداية الظالم إلى طريق الحق.



يعلم الإنسان حقيقة نفسه في ثلاثة مواضع:

- بإدراك عجزه في توبته.

- بقلة حيلته تحت قهر الظالم.

- عند رفع حجاب الآخرة لحظة الموت.

ما أجمل قول الشاعر نجيب فاضل:

تُرفَع حجب وتُسدَل حينها أخرى

فطوبى لك إن قلتَ لعزرائيل: مرحبًا مرحبًا



n

مقدمة.. ٥
ملاحظات في التصوف ٩
ما التصوف ؟ ١١
هل الانتساب شرط؟ ١٤
أمثلة في الفضائل ٢٢
علامات أولياء الله الفارقة ٣٨
الرابطة في التصوف ٥٣
الفتوحات القلبية ٦٠
لماذا العداء للتصوف؟ ٦٦
الحياة على التقوى طول العمر ٦٩
العلم النافع ٧٩
العلم الحقيقي ٨٩
نفحات من القلب ٩٥

ملاحظات

ملاحظات